اشهر مشاهير ادباء الشرق

احمد بك شوقى ، عباس محمود العقاد ، الدكتور طه حسين ، محمد كرد على ،
محمد بك فريد وجدى ، خليل بك مطران ، المرحوم عبد الله فكرى باشا ،
المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى ، المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ،
المرحوم احمد فتحى زغلول باشا ، المرحوم السيد عبد الله النديم ،
المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

وضعه

محمد محمد عبد الفتاح

الجزء الاول والثانى

فى نوابغ الأحياء والاموات

مزين بالرسوم

الطبعة الأولى

الناشر

حسن حسين

صاحب المكتبة المصرية بشارع الصنادقية بمصر

أشهر مشاهير أدباء الشرق

شوقي . العقاد . طه حسين . كرد علي .
فريد وجدي . خليل مطران . [illegible]
[illegible] . [illegible] . محمد عبده . فتحي
زغلول . [illegible] . المنفلوطي

وضعه

محمد محمد عبد الفتاح

الجزء الأول

[illegible]

الطبعة الأولى

الناشر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فهرس الجزء الاول

الشاعر الناثر



أمير الشعراء احمد بك شوقى

١
أمير الشعراء احمد بك شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنك أنت العون والوزر تباركت إياك نعبد
وإياك نستعين

من هو شوقي

بقلمه

سمعت أبى رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وأنشأ فأدخله الوالى فى معيته ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية . ويتقلب فى المناصب السامية . الى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته فى هـذا عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى

أما جدى لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدلى نسبة إلى نجدة إحدى قرى الأناضول . وفد على هـذه

البلاد فتيا كذلك فاستخدمه والى مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمتوقته جدتى وأصلها من موره جلبت منها أسيره حرب لاشرا . وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها وكان زوجها محبوبا عنده كذلك فمازالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفى جدي وهو وكيل لخاصة الخديوى اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته الى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً وكان الخديوى المشار اليه يقول عنهما « لم أر أعفّ منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبى حليماً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته »

أنا إذاً عربى تركى يونانى. جركسى بجدتى لأبى . أصول أربعه . في فرع مجتمعه . تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . وما زال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل . على أنها بلادى . وهى منشأى ومهادى . ومقبرة أجدادى ولد لى بها أبوان . ولى فى ثراها أب وجدان . و ببعض هذا تحبب إلى الرجال والأوطان

أما ولادتى فكانت بمصر القاهرة . حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال لقيت أباك وأنت

حملى لم يوضع بعض فقص على حلماً رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً فى الاسلام

ثم اتفق إنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الاهرام فابتدر خطابى يقول هذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقى فوالله ماقالها قبل فى الاسلام أحد . قلت وما تلك يامولاى قال قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

وهاهى فى يدي أقرأها . فاستعذت بالله وقلت الحمدلله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلا

أخذتنى جدتى لأبى من المهد وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوهما وترى لى مخايل فى البر مرجوة . حدثتنى أنها دخلت بى على الخديوى اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لاينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب اشتغل

يجمعه واللعب به فقال لجدتي اصنعي معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يامولاى قال جيئى به الىّ متى شئت اني آخر من ينثر الذهب في مصر. ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الابصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هـذا المصراع للمتنبى « محاجر مسك ركبت فوق زئبق »



شوقى

وكيف ينظم

بقلم شاعر القطرين خليل بك مطران

ينظم بين أصحابه . فيكون معهم وليس معهم . وينظم في المركبة . وفى السكة الحديدية . وفى المجتمع الرسمى . وحين يشاء وحيث يشاء . ولا يعرف جليسه انه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة .

فاذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافية جميل البادرة كعادته فى الحديث .

ثم اذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كانه لم ينقطع عنه مستظهراً ماتم عنه حافظاً لبقية المعنى الذى يضمره

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة . لايجهد فكره ولا يكده فى معنى أو فى مبنى

فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لانه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول . ترى فبه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبى ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار

المختار من شعره المنثور

الشباب

الشباب أيام آدار[١] ، ودولة العذار[٢] ، وأعنة الأوطار[٣] وهى مهار[٤] ، وليلة العرس فى هذه الدار . سِنة كالطيف سراها[٥] ، وقبلة الخلس[٦] حلم كراها ، ونشوة يلتفت المستفيق لا يراها ، وجنة لو خير المقبل[٧] بالعقل اشتراها . العشق فى غير جناحه ، طائر لا ينهض به جناح ، والكأس من غير راحه ، غبية الساقى بليدة الراح[٨] . والمال فى غير خزانته غريب ، ويتحول عن قريب . رؤيا الوارث فى نومه ،

(١) آدار فى الشهور العبرية يقابل (مارس) فى الشهور الافرنجية وهو مستهل الربيع (٢) العذار جنب اللحية (٣) الاوطار الاغراض (٤) المهار جمع مهر وهو ولد الفرس والمراد أنها فى عنفوانها (٥) السنة الغفلة أو فتور يتقدم النوم والسرى السير فى الليل (٦) الخلس من خلس الشىء أخذه فى مخاتلة (٧) الجنة الجنون والقبل المجنون يشفى من جنونه (٨) غباوة الساقى و بلادة الراح كناية عن ضآلة فرحها وضعف نشوتها

وشغله فى يومه . وملك يده ، فى غده . السلطان والدولة ، والامكان والصولة ، والملك وكل ما حوله. نعم إذا لم تحرز فى الشباب فما هى فى الحرز الحريز[١] ، ودول إذا لم تعتز به فليست فى الدار[٢] العزيز . ولذات إذا لم يشهدها غادتها حسرة الفوت ، وراوحتها فكرة الموت . أروع الشهرة ما طار فى سمائه ، وأمتع الصيت ما سار تحت لوائه ، وأحسن الثناء ما أتى فى أثنائه ، ورف على قشيب ردائه[٣] . فى مطالعه يروع النبوغ ، كما تروع الشمس فى البزوغ ، أو الهلال الغلام[٤] فى البلوغ

فيا ناهب شبابه ، قاعداً للتجر[٥] بابه ، يسرف فى الرحيق وحبابه[٦] ، ويتاف الصبا بين صبابته وأحبابه ، . . . أفق ! تلك دنان[٧] ، لا تقوى على الادمان[٨] ولا يملؤها مرتين الزمان ، كرم لا يوجد فى الجنان ، ولا ينبت فى

(١) الحرز الحريز الحصن المنيع (٢) الدار الكنف والملجأ (٣) الرداء القشيب الجديد النظيف (٤) أى الصغير (٥) التجر بائع الخمر (٦) الرحيق الخمر والحباب الحب (٧) جمع دن وهو إناء الخمر (٨) الادمان مداومة الشراب

« مالقة » ولا « شمبان »[١] . عناقيده مختصرة[٢] الثمار ، مختصرة الأعمار ، بريئة الخمر من الخمار[٣] . حلبها[٤] الأفراح ، وجلبها المراح ، وهى فارضية[٥] الراح ، لم تطأها الأقدام ولم تمسسها الراح[٦] . فلا تعب الراقود[٧] ، واشربه نغبة نغبة[٨] ، ولا تخترط[٩] العنقود ، وكله حبة حبة

---

(١) جهتان بأوربا اشتهرتا بكرومهما (٢) اختصر الكلأ قطع وهو أخضر (٣) الخمار صداع الخمر وأذاها (٤) الحلب اللبن المحلوب (٥) روحانية نسبة الى ابن الفارض (٦) الاكف (٧) عب الماء شربه بلا تنفس والراقود دن الخمر (٨) جرعة جرعة (٩) اخترط العنقود وضعه فى فمه ثم أخرج عوده عاريا

المـال

يا مال :

الدنيا أنت ، والناس حيث كنت ، سحرت القرون ، وسخرت من قارون ، وسعرت النار يا نيرون [١] ، تعود الحقد أن يحالفك ، وأبى الحسد أن يخالفك ، وكتب على الشر أن يخالطك ويوالفك . الفتنة إن تركتها رقدت ، والحرب وهى الحَرَب [٢] ، تبعثها ذات لهب ، منك الرياح ومنك الحطب . تزرى بالكرام ، وتغرى بالحرام وتضرى [٣] بالاجرام . فقدانك العر [٤] والضر ، ونكد الدنيا على الحر . حالك وحال الناس عجب ، تملكهم من المهد ، ويقولون أصبنا وملكنا وترثهم عند اللحد ، ويقولون ورثنا وتركنا ! من عاش قوموه بما ملك ، ومن هلك ، تساءلوا : كم ترك ؟ المحروم من

(١) سعر النار : وقدها ونيرون قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار فى روما ، وأشرف عليها من جبل ليبتهج بمنظر الحريق ، وقد ضرب المثل من هذا اليوم فى القسوة والطغيان (٢) الحرب الهلاك (٣) أضرى فلاناً بالشر اغراه به (٤) العر الجرب

أوثقك ، والضائع من أطلقك : وهما فقيران من جمعك ومن فرقك كثيرك هم ، وقليلك غم . ومع التوسط الخوف والطمع والحرص والجشع . حذر النفاد ، ورغبة فى الازدياد . الملك سوقه اذا نزل إليك ، والسوقه ملك إذا علا عليك . أرخصت الجمال ، ونقصت الكمال ، وخطبت لهجن الرجال هجان ربات الحجال [1] . صويحبابك هنّ المفضلات ، وغيرهنّ المتروكات المعضلات [2] . العريان من ليس دونك منه سترة ، والمستضعف من ليس له منك قدرة فسبحان من قهر بك الخلق ، وقهرك برجال الخلق

---

(١) هجن جمع هجين وهو اللئيم والهجان من كل شيء خياره

(٢) عضل المرأة حبسها عن الزواج

الصبر

بعض الصبر تجلد ، وثم الحزم والرضاء ، وبعض تبلد[١] وهنا العجز والاستخذاء[٢] . ليس الصبر غلظة القلب ، وبلادة اللب ، أو الجهل على الأقدار ، وانكار الايراد عليها والاصدار ، ولا هو اكتظاظ الأندية[٣] وألفاظ تجرى بالتعزية ، ورجل يحدثك بالصبر ، وإذا أصيب تمنى القبر . إنما الصبر استرجاعك[٤] فى النفس الحزينة ، حتى تفىء[٥] إلى السكينة ، وتجىء[٦] من نفسها إلى الطمأنينة . إيمان يزع[٧] ، عند الجزع ، وعقل يزن ، إذا القلب حزن ، ومقابلة الأحكام بالحكمة ، والعلم بأن النعمة ، نذير النقمة ، وبأن الدهر حالتان ، والدنيا حلتان ، وأن من لم ينتفع بالضجر رضى ، وأن لكل شىء غاية وينقضى

---

(١) التبلد الحيرة والتلهف (٢) الاستخذاء الخضوع (٣) امتلاء المجامع بأخلاط المعزين (٤) قولك « إنا لله وإنا إليه راجعون » (٥) ترجع (٦) تلتجئ (٧) يمنع من الحزن

الغد

غيوب محجوبة ، وحجب مضروبة ، وأقدار مكتوبة أعمار موهوبة ؛ أو منهوبة . وأرزاق مجلوبة ، أو مسلوبة . يزيد الملك القهار ، موعده حواشى الأسحار[١] ، أو غرة[٢] النهار . حملت الفجاءات نجائبه[٣] ، واشتملت على المستجدات حقائبه[٤] ، وبلغت مستقرها مغرباته[٥] وجوائبه[٦] . أقبل ففض المختوم ، وظهر المكتوم ، وانفجر المحتوم ، وإذا مناح وبشائر ، وإذا دولات[٧] ودوائر[٨] . واعلم يا ابن الأيام أن الغد أعده الله لك خير ما أعده ، ومده ، لك أيمن[٩] ما مده . هو الشخص الثالث ، فى رواية الأيام

---

(١) السحر قبيل الصبح (٢) غرة النهار أوله (٣) النجائب جمع نجيبة يقال ناقة نجيبة أى كريمة الأصل (٤) الحقائب جمع حقيبة وهى خريطة يعلقها المسافر فى الرحل للزاد ونحوه (٥) و (٦) المغربات الأخبار الطارئة والجوائب كذلك (٧) دولات الايام انقلابها من حال إلى حال (٨) الدوائر الدواهى (٩) أيمن من اليمن وهو البركة

والحوادث [١] ، والخلف من صاحبيه والوارث ، وهو معقد [٢] الآمال ، وموعد الاستئناف الأعمال ، ومرمى همة [٣] المال ، تنام الأنفس وفى إيمانها منه شك ، وفى أيمانها منه صك [٤] ، فاعمل له ما استطعت ، وانتظره أتى أم لم يأت وقل سبحان الذى أتى به ، والذى هو قادر على طى كتابه . يوم يأتيه أمره فلا يبرز من حجابه .

---

(١) شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة : الأمس واليوم والغد
(٢) معقد الآمال موضع انعقادها (٣) يريد بهمة المال فوائده
(٤) الصك كتاب الاقرار بالمال ونحوه يريد أنه واثق بقدومه

كلماته المأثورة

أمس خبر . واليوم عبر . وغدا قدر . يأبى الله ويذر . لايغنى عن نفس حذر . ولا ينفعها ضجر ياأيها الزمر [1] نفد العمر وأردا كم [2] البطر . هل من أثر أو صالح يدخر . فما كان للدنيا فسير . وسلام فى الحضر . وأمان من سقر . أن للدنيا لخطراً . وان منها لمن علم لوطراً . الجاهل مقبور فى بدنه . راقل فى كفنه غريب فى وطنه .

جار الأثر . نتجى الحجر . يتطلب فيهما العبر . ويأخذ الخبر . عمن غبر .

الماس فوق التراب ماس . والخزف خزف ولو حمل على الراس. أما والآلهة فى معابدهم. وآباء الملك فى مراقدهم. لرب صادر عن هذا المنزل. أطهر من خارج من هيكل

العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الأوهام ونوراً يخرج إليه الأمم من الظلمات وان حاملهما مطالب بالعمل والدعوة

(١) الجماعات (٢) أهلككم

الى العمل حتى النفس الاخير من الحياة فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم فالووا الوجوه عنه وأنفروا بالاسماع منه ومن دعاكم الى حياة فذلك داعى الخير فاستمعوا له وأنصتوا

من زل منكم فليستتر . ومن رأى زلة فليستر : من علم على أخيه فلينصح له همساً . وليرحمه فى نفسه وليدع له فى صلاته .

ماأولع الناس بالناس يشتغل أحدهم بشؤون أخيه. وفى أيسر شأنه مايلهيه

اثنان فى النار دنيا وأخرى الحاسد والحاقد

اذا زاد تواضع الكبراء كان تلطفاً فى الكبر

الوقف من حرص النفوس ويراد به فى الغالب المال ثم النبون

أمتن البناء ما أساسه الوقف وأخصب الارض ما طينته الوقف .

بين الحلم والخور جسر أدق من الصراط

الأيام مدارس الأحلام . ولا يستوى فى العلم كهل ولا غلام .

ان للعقل كما للقدم زلة. وان للحليم كما للجاهل ضلة .وان للنفس مع الهوى مائلة والعاقل من اذا مال مع النفس اعتدل .

عليكم بالعلم خذوه نافعاً رافعاً واهجروا منه ما يميت إلى مايحيي واطلبوه « لدينا تعملون لها كأنكم تعيشون أبدا . و الآخرة تعلمون لها كانكم تموتون غداً » وعليكم كذلك بالتربية فانها باب مدينة العلم لاتدخل إلا منه خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها واطلبوها الانفسكم فان كبرت عنها فلابنائكم فان لم تكمل لهم كملت لابنائهم من بعدهم وكونوا «الحفظة» الذين تكرم عليهم بلادهم فى الشدة أضعاف ماتكرم عليهم فى الرخاء . يبكونها بالدموع آونة وفى القلوب آونة لا يفعلون لها عن حرمة : ولا يقصرون لها فى الخدمة . حبها لهم العشق لاالتفات فيه الى ملامة . ولا قيمة معه للسلامة .

محب العلم يطلبه لذاته وهذا أول التوفيق فى طريق التحصيل وسبب النجاح الاوثق لان النفس حيث رضاها

وحيث يجعلها هواها ومن رضيت نفسه بالعلم فسما من أول
يوم وامتلأ فؤاده من حبه أقبل عليه وضن به وانقطع له
وألفى التعب راحة فى تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب
فى سبيله ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه وأنه ماخلق
فى هذا التقويم سدى ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثاً
فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه فى عينه منزلتها
الحقيقية فيطلب العلم لها ويستكثر منه لأجلها ويجرى فيه
الى الغايات فى سبيلها لما استقر عنده من أن العلم يحيى النفوس
ويهذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنه
أغوارها ويسهل لها محياها . ويهون عليها الفواجع فى دنياها
وهذه هى المنزله الثانية فى العلم يقف عندها سواد العلماء
ولا يجاوزها الا آحاد يسخرهم الآلهة بهذا الوجود فيعملون
فيه العمل العظيم ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم من
بنيان يخلدون . أو حكمة يؤيدون . أو مجد يشيدون . أو فن
يجددون .وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع ولا يقال عن
أمة أنها بحياة ولها وجدان حتى يبلغ بأفراد من بنيها هذه
الرتبة ولئن كان العلماء فى الارض عدد ماعرف من النجوم

فى السماء فهذا الفريق منهم كالكواكب التى لم تعرف بعد يكتشف منها واحد على رأس مئة وأنهم لأجل منها وأنفع فى الوجود وأهدى للناس وما بلغ بهؤلاء العلماء الى هذه الرتبة العليا والمنزلة العظمى ،لا ترقيهم فى عرفان قيمة النفس ومغالاتهم بها واعتقادهم أنها لا تفنى وانها أجل ماهية وأعظم شأنا من أن تحصر بأيام الحياة القلائل ولئن تحتم أن تخرج وما مامن هذا الهيكل الزائل فلها من جميل الذكر ومحامد الاحاديث هيكل خالد فاخر يتحلى فى الخواطر ولاتراه النواظر ولا يستأثر به مكان دون مكان ويتوارثه الدهر زمانا عن زمان :

ليس للعلم وطن ولا للحكمة دار بل العاقل من له على كل أرض مدرسة وعلى كل طريق أستاذ

لكل زمان كتاب . ولكل جيل آداب . ولكل كاتب قارئ . ولكل شاعر منشد . والناس أحوج الى أدب من غير أديب ، منهم الى أديب بغير أدب .

العاقل من رضى الدنيا حليله ولم يتخذها خليله . لانها كالمرأة تسكن الى بعل ولا تصبر على خل

المدرسة تقيم العقل فى طريق العلم ولا تتكفل بوصوله

كالمعبد يمد السريرة فى الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء . فرب عابد فى نفسه وصل . ومتعلم من نفسه حصل

العدل أساس الملك . ولا عدل إلا حيث القضاء يدور دولابه . ويولاه أربابه . وتوثق أسبابه . فهو مرآة الحكومات التى تتراءى فيها بما هى من استقامة أو عوج . وظلم أو عدل . وصلاح أو فساد . وارتقاء أو انحطاط . وأساس الممالك إذا سلمت سلمت . وإذا تهدم انهدمت . وعنوان شعور الامم وتعلقها ودرجتها فى القوانين التى تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها ليست إلا مجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها ولان القائمين عليها بهذه القوانين ليسوا إلا أفرادا من أبنائها يبصرون بعينها ويسمعون بآذانها ويشعرون مثل شعورها ويجدون مثل وجدانها فاذا زكوا زكا سائر الامة وإذا خبثوا خبثت الأمة جمعاء

النيات موازين الاعمال لا غنى للقضاء عن تقديرها بالتامل فيها والوقوف حيث هى من صلاح أو فساد للحكم على صلاح الاعمال أو فسادها

الشاهد عنوان الامة فاجعلوا عنوانها الصدق والفضيلة

لا المين والرذيلة . شاهدين يقول أحدهما رأيت نهاراً فيقول الآخر رأيت ليلا ويقول الاول سمعت ضحكا فيقول الآخر سمعت بكاء لمن حقهما أن يفصل بينهما قبل أن يفصل بين المتقاضيين فمن كذب منهما يسلب السمع والابصار وينادى عليه فى الناس بالفضيحة والعار

لو أن من الآلهة قضاة فى الأرض ومن الملائكة متقاضين وفسد الشاهد لفسدوا جميعاً .

لا فضيله ولا عبادة حيث يختلف اثنان فى شهادة وانى لأعجب لكم معشر الحكام كيف تقبلون من شاهد أن يثبت ومن آخر أن ينفى وأنتم تعلمون أن أحدهما كاذب أو محرف للشهادة لامحالة وقبول الكذب إغراء به .

الفضيلة هى روح الشرائع التى يحكم بها الملك رعاياه فلا ينبغى لها أن تنصر عليها الرذيلة فى حال من الاحوال

الأوهام اداء لأمم منذ القدم لم تخل منها أمة خالية ولن تخلو منها أمة آتية

خلق الانسان من ضعف فكان الوهم أول دين دان

به وأول حكومة دان لها وأول شيطان سكن اليه . كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ويتخذ منها آلهة يسجد لها ولا يزال آخر الدهر يتوجه اليه بالتأليه والتقديس والتنزيه وإذا عبد الله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود كان لله الشطر من تلك العبادة وللأوهام الشطر فالمسيحى يبلى الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاما وتقبيلا . كما يضع المسلم خده فى عتب الاضرحة بالقاهرة تمسحا وتأميلا . وتعظيما وتبجيلا . وكان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله

—

الوهم أول شيطان سكن اليه الانسان . تولد منه يقينه ونشأ عنه علمه وجرت عليه أموره وانبنى عليه حكمه وتألف منه مألوف عاداته . يحس به ويشعر . ويسمع به ويبصر . ويعجز به ويقدر . وبه يعيش وعليه يموت

—

الأوهام لا تخلو منها الأمم الكبيرة والشعوب الحية إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة ولا تتجاوزها الى الخاصة إلا ما ندر كما أنها تتملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحطة

فيكون للخاصة منها مثل حظ العامة وهنا عظيم البلوى ومنتهى نكد الدنيا

أليس من الوهم القاتل للأنفس المميت القلوب أن يصبح فى أذهان خاصة المصريين من أمراء وعظماء وأدباء وعلماء أنهم أمة ليس فيهم فلاح ولا يرجى فى أمرهم صلاح وأن اتفاقهم سابع الجهات ورابع المستحيلات وأن الوطن ميت وأنهم ميتون وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التى لا تنطبق على نواميس الوجود ولا ترد الى أحوال البشر وحوادث التاريخ

الأوهام داء الامم ومنية الشعوب إذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الأساس وكالنار فى الشمار وكالحبل فى الخناق وكالعلة فى القلب لا يخفق معها إلا الى حين . ومن تبالغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر تبالغ هذا الداء فيه . حكوماته دواليب تدور بالاوهام وبلدانه مملوءة ما بين السما كين من الاوهام وأممه تروح وتغدو حيث تجماها الأوهام . نظر الواحد منهم فى الأمور عرضاً وبعين غيره وحكمه فيها عن الهوى وانقياده فى إيرادها وإصدارها بأزمة الاوهام .

ليس مع السلوة عيش ولا مع القنوط عمل ولا مع اليأس حياة . وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهين العزائم وإماتة القلوب وإخراج النفوس من الرجاء الى اليأس الذى هو الموت فى أشنع صورة وأقبح أحواله .

آفة النصح أن يكون جدالا . وأذاه أن يكون جهاراً

شرف الكبراء كالورد فى إبان[1] غضاضته إذا نزعت منه ورقة انحل واندثر . وانتقض جميعه على الأثر

إذا ذهبت الأمم بقيت إلا من علم أو تعلم

إذا كثر الشعراء قل الشعر . لا يزال الشعر عاطلا حتى تزينه الحكمة . ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤديها بيت من الشعر

الأمم تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال فما تلك الا بؤسى تزول وحال ستحول الامة . تصح ثم تعتل . تتجدد من حيث تبلى وتقوم من حيث تسقط وتصح بالعلل . هـذه اليابان هل كان فى حسبان

---

(١) فى أول طراوته

أحدأن تضم صوتها يوما ما الى أصوات دول الغرب مسألة من أكبر مسائل العصر وتطمع مع الممالك الطامعة وتسير الجيوش فى البر وتخرج الأساطيل فى البحر وقد كانت وأنت فى زمن الدراسة لايذكر اسمها الامقرونا باسم الصين عنوان الهمجية ومثال التوحش والمشبه به اذا ذكر التأخر والانحطاط .

الغضب يعمى صاحبه . ويضل راكبه . يريه صدور الأمر ولا يريه عواقبه

عرفت صنوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذه امرء من نفسه ثم من حيث التفت فرأى وكلما قيل له فسمع من حديث المتكلم أن صدقا وان كذبا وصموت الصامت أن بكامه وان بكما ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المتكبر وهذيان المهوس وعربدة السكران ومن النمل فى مشاغلها والنحل فى معاملها والذر فى مستشاره والبرق فى مستطاره . والزهر إقباله وإدباره والفلك ليله ونهاره . والبحر مضطربه وقراره . ومن النفس إذا اعتلت وإذا صحت وإذا ضمت

وإذا رغبت وإذا تسلت وإذا جشأت وإذا اطمأنت وإذا شكرت وإذا جحدت . ومن الطباع إذا امتحنت والسرائر إذا بليت والهواء إذا اختبرت . مدارس لايفرغ الاديب منها . ودروس لايصبر الحكيم عنها

ثلاثة لثلاثة بالمرصاد . الموت للحياة . والشقاء للذكاء والحسد للفضل .

انى لاأشفق من الخمر على الخاصة فان لهم عقولا تردهم أحيانا الى الاعتدال فى أمرهم وأشغالا من العيش وأسبابا من السعة تعينهم على الخمر وتقيهم كثيراً من عواقبها ولكن أشفق منها على العامة فهى فيهم سلطان جائر يفتك ولايرحم وشيطان ثائر يسكن الرؤس فيملأها شراً ويتملك النفوس فيملأها خبائث واذا هلكت العامة فى أمة فقد هلكت الخاصة

التاجر بالخمر قاسى القلب لايرحم صرعاه . غدار لايشيع جنازة قتلاه . غشاش لايقف فى الغش عند حده شره لايقصر فى الكسب عند غاية فاذا لم يكن منكم رقيب عليه

ولم يضرب القضاء على يديه عظم شره وعم ضره وتشبه به الـكثيرون من أهل الـكسل والشره

عليكم بالاقدام فانه مفتاح الغنى والطريق المختصر الى العلياء والسلاح الامضى فى معترك الاحياءبه سدت وعايه اعتمدت فيما أسست وشيدت وانه ليخرج أصحابه من غمار العامة الى عليا مراتب الملوك ومن هون الخمول الى العز والسؤدد والذكر الجميل

الذى يميز علماء هذه الأمة على غيرهم ويجرى بهم الى الغايات ويكفل لهم السبق ويجعلهم أساتذة وقتهم ومصابيح عصرهم أنهم يطلبون العلم لذاته ثم لا نفسهم ثم للاحاديث من بعدهم وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب علم رزق الحجى والذكاء وفسحة الأجل إلا نبغ فى حياته ثم جاوز ذلك الى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته

حظ النفس من الحرص حظ المقاتل من السلاح، إذا زاد عن حاجته اختبل، وناء بما حمل، واذا قصر تقهقر وانخذل

لا تهافت على اللئيم فتتهم فى مروءتك — ولا على الغنى فتتهم فى عفتك — ولا على الجاهل فتتهم فى فطنتك

هل ترى فى جميع ذلك إلا معرفة في العلم ودراية فى الفن . ومهارة فى الصناعة وغير إحكام فى الصنع وإتقان فى العلم ورغبة فى الثناء وهمة عالية في الامر وذكاء فائق فى الامور وطاعة واجبة للملك على الرعايا وعدالة مفروضة للرعايا على الملك وهذه يا بنى أسس الآداب ورؤوس الأخلاق وقوى الحياة فى الأمم وسر نجاح الشعوب

إن بيوت التجارة لا تعمر ولا يرفع لها عماد حتى تكون أوسع من صدر الحليم وأرحب من فناء الكريم تخف بالثقلاء ويدارى فيها السفهاء ويعالج البخلاء ويصبر للأغبياء ويتهافت على الغلظاء ويحمل فيها الكبرياء

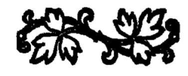
الكاتب الاجتماعى الكبير



الأستاذ عباس محمود العقاد

٢
الاستاذ عباس محمود العقاد

الأستاذ عباس محمود العقاد من نوابغ الطبقة الجديدة من الكتاب في مصر فهو من المطلعين على آداب الغرب وآداب العرب معاً وعلى كونه واسع الاطلاع ملماً بكثير من نتاج القرائح في العصور السالفة والمتأخرة فان له شخصية خاصة به لا يتنزل عنها في ما يكتب وله كذلك أسلوب خاص جامع بين المتانة والسلاسة



المختار من نثره

سر تطور الامم

بحث ضاف جليل فى نقد نظريات كتاب سر تطور الأمم

كتاب من الكتب القيمة وضعه عالم فرنسى جليل ، وعربه وزير مصرى عامل . والكتاب على صغر حجمه وايجاز أبوابه من الأسفار التى قل أن يلج مثلها إلى عقول المصريين من جانب اللغة العربية . وأيسر مايقال فيه أنه سيعوّد القراء أسلوب البحث الجديد فلا يركنون إلى تلك المباحث التى مدارها على التلفيق . وهى براء من المعنى براءتها من صدق النظر والتحقيق . فما أكثر الكتاب الذين كانوا ينظرون عندنا إلى أعضل مسائل الاجتماع وأغلق أبواب المستقبل بعين تتخيل الأفكار كما يتخيل الناظر الواهم صور الجمال والثعابين والحيتان فى قطع السحاب المذعذعة فى السماء . وحسب الواحد منهم أن تتم فى ذهنه صورة ملفقة على هذا النمط فيبرزها للناس قضية مسلمة ، ويبنى عليها النتائج البعيدة والنظريات الخطيرة

أفرد المؤلف أكثر فصول الكتاب لتجلية الفكرة التي يحوم حولها في أكثر كتاباته . وهي أن لكل أمة روحاً تسير أعمالها ، وهذه الروح هي التي تكيف أطوار الأمة وتشكل ملامحها الظاهرة . وإليها يرتد سبب كل حركة من حركاتها . وقد غالى في وصف مالهذه الروح من الأثر في كافة أحوالها ، إلى حد يوهم أنه ينكر ما للعوارض الطارئة من الأثر الثابت في حياة الأمة ، والحقيقة أن لهذه العوارض شأناً في تاريخ الأمم لايحسن إغفاله ولا سيما من وجهة النظر السياسي ، كما أن الربان الحاذق لايجلس مجلسه من السفينة إلا ليرقب ما يهب عليها من الأعاصير ، ويثب إليها من الأمواج ، ولا يغنيه علمه بأدوات سفينته ولجاج البحر الذي يسلكه عن الدربة على قيادة السفينة في تلك الأهوال ، وإلا فان ثورة واحدة من تلك الثورات قد تهوى بالسفينة إلى القرار . وما العوارض الطارئة إلا الخيوط التي ينسج منها روح الأمة ، ويتكون من مجموعها سلسلة اختباراتها وذكرياتها الماضية ، وهي لاتجعل في الأمة شخصاً غير شخصها ، ولكنها تغير بنية ذلك الشخص ، فليس لروح

الامة دخل فى تاريخها إلا بقدر ما للارادة فى تاريخ الفرد ، وكثيراً ماتكون الارادة منفعلة بما يطرأ عليها ولا تكون هى الفعالة إلا إذا جاءت الحوادث بما يوافقها . وقد بالغ المؤلف فى تقدير طول الزمن الذى يرسخ فيه المبدأ فيصير عقيدة موروثة وجزءاً من أجزاء تلك الروح ، وهى مبالغة غير محمودة لأنها توقف المصلحين موقف الحذر الشديد عند كل حركة جديدة ، وتصغر من قيمة الفرص الوقتية فى حسابهم لاسيما إذا كان لاسبيل إلى تشخيص روح الأمة ومزاجها تشخيصاً يقطع الشك باليقين ، ذلك ما هو واضح من غموض الفكرة نفسها فى الكتاب فان المؤلف لم يستطع إلا أن يلم بها إلماما غير محيط بها ولا ضابط لدقائقها . حتى أن القارىء ليخرج من الكتاب وهو لايدرى حد الفارق بين روح الأمة الانكليزية والأمة الفرنسوية . هذا على أنه يكاد يكون موضوع الكتاب الذى جاهد المؤلف غاية الجهد لتبيينه وتفصيله ، ولاريب أن مثل هذه الفوارق التى يلمسها المؤلف الا بيد الحس لايصح أن تكون أساساً للأحكام العريضة التى سجلها على أكبر مبادىء العصر بل

على الدين الجديد فى عرفه . فاذا كان الغرض من تقدير تلك الفكرة المبهمة الاشارة إلى اختلاف الأمم فى الأمزجة فذلك مالا نزاع فيه أما ان كان يرمى به الا أبعد من ذلك فالحق يقال أن قدمى هذه الفكرة لاتحملانها الى أبعد من تلك الغاية . إذ ليس فى الكتاب ما يبين بياناً جازما أن الحادث الذى يقع فى هذه الامة لن يقع مثله فى أمة أخرى، وليس فيه حجة دامغة تنفى القضايا التى قررها علماء التواريخ ونؤيد بها قولهم أن للأمم أطواراً تمر بها كل أمة حية ، وانه أن اختلفت الازمان بعداً وقرباً فذلك لاختلاف المناسبات والطوارىء ولشىء قليل من تباين الأمزجة ، ولكن هذا التباين لايمنع أمة من أن تعتنق كل رأى فى حينها المقدور لها ، وان كانت ربما دعته بغير مايدعى به فى الامم الاخرى ، تبعاً لاختلاف اللغات ، وتفاوت الاحوال والعادات

فليس فى مجلس انكلترا مثلا حزب اشتراكى كحزب فرنسا الاشتراكى ولكن فيها حزباً للعمال . وكلا الحزبين غايته واحدة ومطالبه متشابهة . وهى انصاف طبقات ال

من أصحاب الاموال . والدكتور لوبون يقول مع ذلك أن الاشتراكية شاعت فى فرنسا لان مزاج أهلها يميل بهم الى الاعتماد على الحكومة ولم تشع فى انكلترا لان الانكليز أهل استقلال لايعولون الا على أنفسهم — دع ذلك وانظر صوب ألمانية فانك ملاق فيها شعبا اشتراكيا صريحا وحزبا يمثل الاشتراكية فى مجلسها هو أقوى الاحزاب وأوسعها نفوذا والالمانيون كانعلم شعب سكسونى قريب مزاجه من مزاج الأمة الانكليزية فما باله فى هذه الحالة أشبه بفرنسا اللاتينية منه بانكلترا السكسونية ؟؟ وكأن الدكتور يحس بركة تعليله فى هذه النقطة فجعل الاشتراكية آفة أوربية عامة ، وعبر المحيط الأطلسى ليجد له فى الدنيا الجديدة برهانا يدعم به رأيه . فانظر كيف يقول فى ذلك : « واذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوربا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا أن الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التى قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمى . وليس لهذه الفروق الكلية منشأ الا الاخلاق. ومن المحقق

أن الاشتراكية الأوربية لاتجد لهـا مكاناً تنزل به فى البلاد الاميركية . لان الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا فى الامم التى شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقـدها الأهلية لحكم نفسها . . . . »

ولكنا نقول للدكتور أن الاشتراكية قد سبقته الى الولايات المتحدة أيضاً . وأنهـا ليست فى بلد من البلدان أجهر صوتاً مما هى هناك . فليس فى الدنيا حكومة تضطهد الشركات كما تضطهدها جمهورية الولايات المتحدة . وقد طاردت هذه الحكومة منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلتها وألزمتها غرامة فادحة . فكان الجمهور الاميركى يهلل لها ويثنى عليها . واذا قرأت أيام الانتخابات برنامج كل حزب من أحزاب السياسـة هناك رأيت كيف تتبارى فى ارضاء طوائف العمال ومهاجمة كبار الماليين . وكيف تحبر الصحف الفصول الطوال فى تقبيح مطامع الاغنياء والعطف على الفقراء . فان كان الدكتور يعنى بالاشتراكية غير هـذا .

فليهـدأ بالا فليس فى أميركا ولا فى أوربة . لا بل ولا فى الدنيا بأجمعها اشتراكية

وفيهما خلا وصف روح الأمة وشرح ما لهذه الروح من التأثير فى تكوينها . فالكتاب بجملته جملة منكرة على المساواة والاشتراكيـة . يخيل اليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المسـاواة بقلم شارل الاول أو لويس السادس عشر . وانه يكتب عن الاشتراكية بايعاز من روتشيلد أو روكفلر فتراه ينعى على مبدأ المساواة ولـكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة . وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس عن نعيب البوم . لا يعلمون لذلك التشاؤم سبباً . ولعل فى الاشتراكية شيئاً من ثقل الدم لا يقبله مزاج بعض الناس ومنهم الدكتور لوبون ؟؟

فمن أقواله عن المساواة : « غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون فى النـاس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب »

« خلبت هذه الفكرة اذهان الجماعات فارتكزت فى عقولهم ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الاولى وولدت أعظم الثورات، ورمت أمم الغرب فى اضطرابات شديدة لايعلم مصيرها الا الله » ثم يقول « الا ان العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الافراد والشعوب لاتزول الا بتراكم المؤثرات جيلاً بعد جيل » ثم يقول بعد ماتقدم : ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى مجرب الا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالى، أعنى مذهب المساواة الذى قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام فى القارة الاوربية ثورة ارتج الكون منها وأذكى فى القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنساوية فى حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم فى وجهه بمعارضة ما . . . »

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة ! ! على أن دعاة المساواة لم يشطوا فى مذهبهم . وقد علموا أن

الناس ليسوا على غرار واحد فى العقل والفضل . فالعجب الدكتور ما باله يبادر فيمسك بألسنتهم ويأخذهم بشهادتهم كأن هناك تناقضاً بين قولهم ودعوتهم !! فان دعوتهم الى تساوى الناس فى الحقوق أمام القانون لا تعطل تنازع البقاء بينهم ولا تذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم . بل هى تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التى يضعها فى طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار . وبغير هذا المبدأ لا يكون ثمت معنى للنظام والقانون الا اذا كان الغرض من أبطال المساواة الدعوة الى اطلاق الناس أقويائهم على ضعفائهم وتحقيق مذهب الفوضى

يحق لأعداء المساواة أن ينكروا على دعاتها كل الانكار . ويحق لهم أن يحتجوا عليهم «بأن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة» هذا اذا كان دعاة المساواة فى شك من ذلك . أو اذا كان قد قام منهم قائم يمنى العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف فى الجامعة أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس . ولكننا نعلم أن داعياً كهذا لم يقم وان يقوم لان مديرى البيمارستانات لا

يفرطون فى مثله اذا ظهر . وكل ما يعنى به الداعى الى المساواة ذلك العامل أنه يكون متساويا مع سائر الناس فى الامن على حياته . وهل فى ذلك من ضير ؟ ؟ واذا كان مبدأ المساواة لايمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقه في المعارف أو المواهب العقلية على سواه . فأى ضير فيه ؟ ؟

ان كان الدكتور يصم هذا العصر بانه عصر الجماعات وأنه يبيح للفرد الجاهل من الحقوق السياسية مايبيحه للفرد المتعلم . وأن صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبي فى انابة النواب وانتخاب الحكام فهذا أمر لامحيص عنه ولاسبيل الى ابداله بماهو أصوب منه . على أن التساوى فى أصوات الانتخاب ليس الا تساويا صوريا . والحقيقة أن لكل انسان من الاصوات بقدر ماله من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو افضل من غيره للنيابة ، وذلك ما يجعل أكبر الناس عقلا أكبرهم قسطا فى سياسة بلاده ، فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ويستخدم تلك الاصوات المتعددة فى غرض

واحد . فذلك مايشكو منه الاشتراكيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون

وهب أننا اليوم أبطلنا مذهب المساواة . فمن ياترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ماهو أهل له من الحقوق السياسية والأدبية ؟ ؟ أترانا نلجأ فى ذلك إلى الحكومة ؟ ؟ ذلك ما يأباه الدكتور لانه يريد أن يقصر عمل الحكومة على الضرورى الذى لا يسع الافراد القيام به . فأولى به وهذه ارادته أن لا يدعها تتداخل بين الناس حتى فى ترتيب أقدارهم وتمييز درجاتهم كانما هم كلهم موظفون فى دواوينها — فلم يبق إذن الا أن نترك الناس يدعى كل منهم ما يقدر على تحصيله بذراعه — وبمثل هذا النظام نأمن شر مبدأ المساواة ولا نكون قد تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لاننا « اذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهى مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بها وهم باحلامهم من التعساء » الخ

***

ذلك حديث صاحب الكتاب عن المساواة ، أما الاشتراكية فهو كما قد يظهر من الشذرات التى نقلناها عنه شديد الطيرة منها . وهو يمثلها تمثيلا مشوها . ويعمد إلى شر مذاهبها فيعرضه على القارىء فى حالة مشنوعة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بأنها ستؤدى بالامم الى أرذل درك الانحطاط حيث يقول « نعم لا حاجة لان يكون الانسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبىء بأن العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية يفضى بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط وأخرى ه ور الاستبداد »

وتارة يصور ها لك كما هى فى أذهان الجهلاء الواهمين . فيسبق إلى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الافيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين . فهى كما يقول الدكتور « تمثل فى ذهن النظرى الفرنساوى صورة جنة نساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة . وتمثل للعامل الالمانى حانة طبق دخانها وطعق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقا من لحم الخنزير أو الكرنب المملح ودنانا من الجعة الخ »

وأما والله لو كانت هذه هي كل الاشتراكية لما عز على الدكتور علاجها فما هو الا حمل من النشادر يحتسبه على نفقة أحد المرابين أهل الخير — والمرابون كلهم يشفقون على الناس من سكر الاشتراكية — ثم يسعطه اولئك المساكين فيفيقون من ذلك الخدر العميق — ولكن هذه الاحلام ليست الاشق الاشتراكية الذى قد يلوح لبعض السذج من العامة ويبقى منا بعد ذلك مبادئها العملية وقواعدها وهى للأسف لاتدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة لانها مذهب مست اليه الحاجة وشعر به الناس قبل أن يعانه الفلاسفة وأهل النظر . ولا سيما إذا كان بطلان مذهب الاشتراكية سر الدنيا « لايعرفه الا علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة » وكانت « الادلة التى تقنع به لاتأتى من طريق العقل »

الاشتراكية التى يراها الدكتور آفة الامم ومباءة الفناء والاضمحلال هى رجاء الانسانية ومعقد آمالها فى التعمير والبقاء .

ليست اشتراكية اليوم أسطورة من الأساطير . ولا

هى وعد خيالى يبشر الناس بالتعادل فى الاقدار والتشا كل فى المنازل والارزاق، كلا فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله، وأن ينتفع المجموع باكبر مايمكن الانتفاع به من قوى الافراد

ان كانت الدنيا قد حم أجلها وكارب يومها لان جائعا يريد أن يشبع، ومنهوكا يتمنى أن يستريح، ومظلوما يود لو ينتصف، فلشد ماهزلت هذه الدنيا ونحف مزاجها بعد ان احتملت فى ماضى العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء، ووطأة الدعاة والدجالين

ومن العجيب أن الدكتور لايستقبح من أنظمتنا الحاضرة شيئاً الا كان دواؤه فى الاشتراكيـة . فاذا أراد استنباط الدواء من غير هـذا المذهب وقع فى التضارب والحيرة

فاقرأ رأيه وهو يصف الدواء لنهوض الأمم المائلة إلى السقوط ويحيلها إلى النظام الجندى يقول « فأهم الشروط التى تلزم لنهوض الأمم المائلة إلى السقوط تعميم نظام الجندية

قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة »

يريد الدكتور ليتخذ من نظام الجندية جبارة يشد بها عظام تلك الأمم التى رض الزمن عزائمها وكسر أعضاد همتها . وهو يعتقد أن الجندية سوف ترجع للرجل المتحضر رجولته واستقلاله وتشفيه من مرض الاشتراكية التى هى « فناء الفرد فى الدولة » والتى « تفضى بالأمة إلى أخس درجات الاسترقاق وتقتل فى نفوس من خضعوا لحكمها كل همة وكل استقلال » . يقول المؤلف قوله هذا على أن الناس يعلمون والمؤلف لايجهل أن الرجل أضيع ما يكون استقلالا فى الجندية ، وأن الجندى فى الجيش ليس إلا آلة تتحرك باشارة من القائد وليس لها أن تعرف إلى أين هى مسخرة ولا فى أى غرض يسخرونها . فان كان فى الجندية شىء من الخشونة فليس كل خشونة رجولة واستقلالا

قال الدكتور فى الفصل الرابع من الباب الأول :
« أشار توكفيل إلى تدرج الفروق الذى نبحث فيه بين طبقات الأمم فى زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها

فى الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس فى تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره . فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه »

وهى ملاحظة صادقة من توكفيل . فان النظام الاقتصادى الحاضر قد أصار العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة إلى استخدام ذكائه وحذقه . فبعد أن كان العامل يصنع الآداة وحده فيفرغ ذكاءه فى تجويدها ويتفنن فى تكميلها وتحسينها . إذا هو الآن يتناول الجزء الصغير من تلك الأداة فيصنعه بلا روية ، ويجىء المهندس أو رئيس الصناع فيؤلف من تلك الأجزاء تلك الأداة على الوجه الذى رسمه . فاذا خرج الصانع من المعمل لم ينتفع بصنعته وعجز عن العمل على انفراد ففقد مزية الاستقلال

هذا النظام الاقتصادى المودى بالمواهب ، المعطل للعقول ، هو النظام الذى تثور عليه الاشتراكية . فما قامت الاشتراكية الا لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب المعمل ، وتجعله إنسانا ذا رغبة فى عمله وغيرة عليه ، وليس

كما هو الآن آلة تدير آلة . فان كان الدكتور يفتش عن الاستقلال فلا يبحث عنه فى ثكنات الجنود ولكن ينشده فى مبادىء الاشتراكية

*
* *

وليست الاشتراكية سبباً فى هذا الاضمحلال الذى يعتور الجيل الحالى من جوانبه الرئيسية . ولا هى من أعراض ذلك الداء التى لا تتخلف عنه . ولكنها حال تلازمه فى بعض الأحيان وتظهر معه كما تظهر رغبة النجاة فى الفريق عند الغرق

فما هى من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديمة وجدت فى كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل . إلا إن هذا العصر قد ترقى فى فهمها وتوسع فى تطبيقها تبعا للرقى الشامل لكل مرافق الحياة

كانت الأمم الغازية تفتتح البلاد فيستأثر قواد الجيش الفاتح وجنوده بأطيب الأرزاق ويميزون أنفسهم عن سائر الأمة بمزايا يحرسونها بالقوة ويذودون عنها بالسلاح . ثم تؤول هذه المزايا بالوراثة إلى أعقابهم فتصير حقوقا ثابتة .

ويجنح هؤلاء الأعقاب إلى الدعة والكسل جيلا بعد جيل فيجنون ثمرة مالا يزرعون ، ويجشمون غيرهم مشقة السعى وهم نائمون : وتفسدهم البطالة فيتمادون فى اللهو والخلاعة ويتهالكون على المجون واللذة . ولا يزالون ذلك دأبهم حتى يضجر الناس منهم ويحنقوا عليهم ، فتنقض عليهم فى هذه الآونة جارة ترقب غفلتهم . فلا تصادف فيهم إلا سراة لاهين ورعية ساخطين

كذلك ثار أرقاء الرومان على سادتهم ، وكذلك ثار الفرنسويون على نبلائهم فقال المؤرخون عن الأولى عبيد تمردوا ، وقالوا عن الثانية سوقة عربدوا — وما هى إلا الاشتراكية تبدو وتخفى فى تاريخ الناس من حين إلى حين

لسنا نحن فى عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ، أو يستبد فيه شرفاء على سوقة . ولكن المسألة ظهرت فى طور جديد ظهرت بين أصحاب الأموال وطوائف العمال

أخرج العلم تلك الآلات الضخمة ، فأصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم فى معمله . فكان التعب والحرمان من نصيب فريق والراحة

والربح من نصيب الفريق الأقل . فتجددت الشكوى القديمة . وعادت الاشتراكية فى هذا الثوب العصرى . وقد عادت مرافقة لعهد الاضمحلال أيضاً . ولكنها ستكون فى هذه المرة أطول منه عمراً . لأننا اليوم فى مأمن من غارات القرون الأولى . ولأن العلم والنظام قد أصبحا ملكا للانسانية عامة وليسا من خواص أمة يذهبان بذهابها

*

واذا صح رأى نورد فى كتابه التأخر والاضمحلال فهذا الضعف الذى استولى على الجيل الحاضر أثر من آثار النظام الاقتصادى فلقد أفرط الناس فى إجهاد أبدانهم إفراطاً حط من قواهم وأتلف أعصابهم . وهم كلما أحسوا بالضعف انكبوا على المنبهات من خمر وحشيش وتبغ وقهوة إلى أشباه ذلك فزادتهم ضعفاً على ضعف . فلو أن ساعات العمل نقصت قليلا وزيدت الأجور زيادة تمكن العامل من تعويض خسارته اليومية بالطعام وأسباب الراحة ، لكانت الاشتراكية قد أنقذت الجيل القادم من غوائل هذا الاضمحلال . وبهذا الرأى — أى رأى نوردو — يسهل

تعليل قول الدكتور فى ختام الفصل الاول من الباب الثانى إذ يقول « فالامم تموت متى ضعفت صفات خلقها التى هى نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الأمة من الحضارة والذكاء » إذ لاتخفى علاقة بعض أنواع الضعف العصبى بالذكاء

قال عبد الله بن معاوية « مارأيت تبذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع » وغريب أن يهتدى كاتب من كتاب القرن الثانى الهجرى إلى هذه الحكمة الجامعة . ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم أن يتخذ لمذهبه شعاراً لما زاد على تلك الحكمة حرفاً . فالاشتراكية تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع ولا مطمع لها فى العدوان على انسان

***

يتذمر الدكتور لوبون تارة : من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة إلى حب الذات . ويأسف حيناً لتلك الحقائق القاسية التى « جلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الافكار التى يمتاز بها المرء فى هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك

آطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون . ففرضت فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك أفقدها الارادة . ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها »

وقد تكلم ماكس نوردو فى كتابه المتقدم عن هذا الخلق الذى دعاه الدكتور لوبوز عبادة المنافع الذاتية . ومن رأيه أنه ناشىء عن أمراض الاضمحلال التى ألمعنا إليها وأنه شعبة من جنون الأنانية وتقول أن حب الذات ينشأ عن ضعف حاسة الواجب وهو مرض من الأمراض العقلية . ولكن يزيده إعضالا تأكد الناس من عدم التوازن بين حقوق العاملين وواجباتهم ، فيرون كيف يثري الوسيط ويعدم التاجر ، وكيف يكرم القواد الوضيع ويهان العامل الأمين ، وكيف أن الكسب المباح يحسب بالدانق والسحتوت وأن ربح الاحتيال يعد بالدنانير والبدر ، ولقد تدلينا فى هذه الأيام إلى هذه الوهدة . وتلك مغبتها التى نعانيها

لا أمل فى الخلاص من هذه السوآت إلا إذا ساد اعتقاد الناس بتضامن الانسانية . وأيقن كل فرد أن على

حقوقه حارساً من أمته ، وأنه موضع عناية الانسانية جمعاء .
وبذلك نشوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب . وإلا
فلو ظن الانسان أنه ليس ثمت ضمير عام يؤنب الناس أجمعين
على ما يحل به من الغبن والأذى . وأنه لا حق له فى الرحمة
أينما يمم وجهه . فقد مات ضميره وغلبه الحرص فتعلق
بالجشع ونبذ المبادئ والفضائل إلا ما وافق منها هواه وفشت
فوضى الأخلاق فارتفعت الحدود واندثرت معالم الشرائع إلا
فى الدفاتر والأوراق

يقول الدكتور لوبون : « اليوم تميل الامم القديمة الى
السقوط فهى تهتز من الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً أثر
واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من إيمانها الذى قامت
عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت حتما مقامه حضارة
جديدة مؤسسة على معتقد جديد »

نعم فلا بد للأمم من معتقد جديد . أفتدرى ما هو
هذا المعتقد ؟ ؟ هو وحدة الاخاء أو هو التضامن الانسانى
أو هو

آزرع فى قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية تكبره

فى عين نفسه وترفع من قلبه ذلة المخلوق الذى نبذته السماء ولم تعبأ به الطبيعة كما تعبأ بأحقر المخلوقات

وينبغى أن يعتقد الانسان أنه يعمل للانسانية لا ابتغاء المثوبة أو خوفا من العقوبة ولكن مسوقاً بمحرض من غرائزه التى لا طاقة له بالخروج عنها . فاذا عمت هذه العقيدة رضى كل إنسان بحظه ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية الا فى ارضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحى به للضمير

انعام لعهدنا هذا حرم فى كل أمة لا يحتمى فيه الا أبناء تلك الامة . وقد أشار الدكتور الى ذلك فى قوله انك « لا تجد بين ساسة الانجليز واحداً لا يرى جواز استعمال أمور فى جانب أمة أجنبيـة لو أتاها فى بلاده لانزلت به السخط من كل ناحية » والحقيقة أن ذلك دأب ساسة الامم كلها وليس الانكليز وحدهم ولكن ذلك الحرم تمتـد حدوده يوما بعد يوم حتى يشمل فى زمن من الازمان كل أمة جديرة بالدخول فى لحمة تلك الاخوة العامة . وكذلك كانت عهود الاخلاق فى مبدإ أمرها غير مرعية إلا بين أبناء القبيلة . قال دارون فى كتاب أصل الانسان « ولكنا —

أى أصول الأخلاق — لم تكن معتبرة إلا فيما بين أبناء كل قبيلة على حدتها وما كانوا يعدون مخالفتها فى حق أبناء القبائل الغريبة جريمة مستنكرة » فما زالت هذه الأصول تنداح من نطاق إلى نطاق أوسع منه حتى شملت بناء الجنس الواحد ثم شملت أبناء كل دين على تباين أجناسهم ثم أصبح الناس يسلمون بها نظريا فى حق نوع الانسان بأسره ولكنهم يخالفونها عملا وهم سائرون فى طريق الوحدة. والطبيعة تقوم بعملها لهذه الغاية فتقرض الشعوب الذابلة ولا تذر منها إلا ما هو أهل للرعاية والبقاء. تمهيداً لو حدة الانسانية وشمول أحكام الضمير العام

هذه هى العقيدة الجديدة فاذا ما سكن الناس إليها واشتاعوا عليها كانت منارا لآمالهم ومنارة لآلامهم. وكان لهم فيها نعيم وعزاء وفى الحيدة عنها عذاب وشقاء

*

لا يفوتنا بعد أن نقدنا ما خلنا فيه شيئاً من الغلو أن نقول أن فى كتاب سر تطور الأمم من الآراء الصائبة والافكار القويمة ما هو حقيق بانعام النظر وطول التدبر .

وأن المؤلف لو أخلاه من الاحكام والنتائج وقصره على الملاحظات والآراء لما كان فيه مأخذ ينتقد . فان العلم والفن والأدب لم تجمع حتى الساعة الأدلة والمقدمات التى تكفى لاصدار تلك الاحكام المبرمة والنتائج المحتمة

ومن تلك الملاحظات والآراء ما يهمنا نحن المصريين لأنه ينطبق على حالتنا تمام الانطباق

فيظهر أننا لا نفهم بعد معنى الوطن حق الفهم . قال الدكتور « كان وجود الروح أولا فى العائلة ثم انتشر منها فى القرية ثم فى المدينة ثم فى الاقليم ولم يعم جميع السكان إلا فى أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا فى هـذا العصر لانها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق إلى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم فى حرب مستمرة لأن كل واحدة منهـا كانت أجنبية فى الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ أنى عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الاجنبي تقوم فيها ممالك بسهولة ثم تدول بسهولة

وذلك شبيه بمعنى الوطنية فى مصر فانها لاتعرف غير وحدة القرية وما أظن أن أمة غير الأمة المصرية تقام فيها المناحات لسفر قريب أو صديق من مديرية إلى مديرية تجاورها . ويقسم فيها الرجل بغربته وهو فى عاصمة وطنه . ولاأحسب أن لهذه الحالة دواء أنجع من نشر الكتابة والقراءة وذيوع الادب المصرى بين قراء المصريين فى كل قرية ومدينة

المصريون لايكاد يوجد بينهم شىء من وحدة المشاعر ويكاد يكون أبناء النيل اثنى عشر مليون فرد وليس هناك أمة . ولا ريب أن ذلك ناجم عن اختلاط العناصر وتوالى الأمم الفاتحة كما أنه يعزى إلى سوء فهم الوطنية الذى قدمنا ذكره . ومن الحكمة استحياء أشد العصبيات أخذا بقلوب هذه الشراذم المبددة . ولا فرق بين أن تكون عصبية مصلحة أو عصبية تاريخية أو عصبية وطنية مادامت نفضى إلى لم شعثهم وتوجيه نفوسهم إلى وجهة واحدة

ومن عيوب الامة المصرية فقدان التخصص وشدة التقارب بين الصناعات والصناع وهو نقص بين فان مستوى

العقل — كما يقول الدكتور يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الامم الدنيا ذكوراً وأناثاً . . . . . . وأما عند الامم الراقية فالقاعدة هى اختلاف الافراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً»

ولا نرى إلا أن للخصوبة دخلا فى هذا النقص ، فان الزراعة لا تبعث الحاجة إلى المنافسة كما تبعثها الصناعة . والمنافسة هى باب التفاوت والتنوع في الحرف والمصنوعات وستضطر الامة الى الصناعة لان الزراعة لا تقوم فى هذه الايام بمطالب الناس . ولقد أحجم أغنياء الامة عن فتح باب المنافسة بانشاء المصانع وتبادل النفع مع الامة لانهم غرباء عن البلد . وظل أكثرهم الى زمن غير بعيد ينظر الى القطر المصرى نظرة المهاجر الى دار هجرته ، ويعامل المصريين معاملة الاجانب عنه . وكان أهل الثروة من أبناء النيل فى الجيل الماضى أقل شأناً من أن يستقلوا بعمل وأجهل من أن يقدموا على غير الزراعة . ولكنا أصبحنا نرى سراة مصر وقد استوطنوها وأرسخوا أقدامهم فيها وارتبطت مصلحتهم بمصلحتها فلا يبعد أن يكون شأنهم فى المستقبل غير شأنهم

فى الماضى ولا سيما إذا عمت الوطنية سكان مصر على السواء وعد من أبنائها كل من ينفعها وينتفع فيها من الوطنيين والنزلاء فان مصر بحاجة الى تآلف الاغراض ألفة تشبه ما يعوزها من وحدة المشاعر

ولا ننس الاخلاق فقد لحقتنا كل أضرار المدنية الغربية ولما نصل إلى شىء من مزاياها . ولا جرم فقد سهل على حواسنا أن تدرك ملذاتها فانغمست فيها . وقصرت عقولنا عن إدراك معانيها فحيل بيننا وبينها ولو أنك حملت زنجياً حقيراً إلى باريز لتمتع بكل رذائلها فى أسبوع واحد ولكنه لن يتمتع بمعارفها وآدابها لان الفرق فى الحواس قريب بين ارفع الناس واحطهم ولكنه بعيد جداً فى العقول والاذهان

فنحن اليوم نعب من أباحية المدنية الاوربية ومنكراتها ولا نذوق قطرة من عظمتها وطيباتها وما كنا لننتظر أن نجنى ثمرة المدنية بغير شوكها . فان المدنية شباب الانسانية وفى سن الشباب تتولد الشهوات كما تتفتح القوى وتنمو

المدارك ، وليست طهارة الفطرة الا كطهارة الطفولة التى لا تأثم لأنها فارغة من الشهوات كما أنها فارغة من القوى والمدارك ، ولكن الرزيئة أن نضيع سلامة الفطرة ولا نبلغ رقى المدنية ، وذلك ما صنعناه

ولقد أصاب الدكتور لوبون كل الاصابة إذ يقول : « الخلق لا العقل هو الذى تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذى يجعل الأمم تحس وتعمل وما كان كسب الامم كثيراً من شحذ الأذهان والتعمق فى التفكير »

أى والله . فان الانسان بغرائزه ، وان الحياة بزوبرها لاشىء اذ لمحناها من ناحية العقل ولكنها من ناحية الغرائز كل شىء ، بل لاشىء سواها وليست الفضيلة ما سلم به الانسان بتعليل عقله ، ولكن الفضيلة ما نشأ عليه وتضمنه طبعه وزجلته اليه فطرته

فلتكن عنايتنا بالعلم بعض عنايتنا بالأخلاق ، وهذا عمل تتكفل به المدارس والمحاكم والكتب ومما يهون الامر أن الاصابة محصورة فى طائفة ضئيلة من ناشئة المدن . فاذا

وقيت الأمة من عدواها كان الامل في الجيل القادم وثيقاً .

ولا ننكر أن الأمر يلزمه شيء غير يسير من التضحية والمفاداة . ولا بد له من قادة من عظماء الاخلاق والنفوس يقفون فى وجه أهل الفساد وانهم على التفافهم لتسرح فيهم كلمة الحق كما تسرح شرارة النار فى الفاف الاجمة اليابسة

يقول الدكتور لوبون « ان الفارق بين الاوربيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء »

كلا . بل لكل نصيبه من العظماء . فللغرب عظماء العقول وللشرق عظماء النفوس . ومن المشرق اليوم بعظيم من أولئك العظماء الذين كان يجود بهم أحياناً . فيقوم من أوده . ويعزز من أيده . ويأخذ فى طريق الحياة بيده ؟ ؟

الاستاذ الدكتور طه حسين



المدرس بالجامعة المصرية

٣

الاستاذ الدكتور طه حسين

المدرس بالجامعة المصرية

المختار من نثره

النقد

حقيقته . أثره فى الأمم . شروطه ومضار الغلو فيه

ميزُ الخبيث من الطيب والغث من السمين واستخلاص الحق من الباطل والصواب من الخطأ وفك العقول من أسار التقليد وعقال الجمود وإعانة الطبيعة على إحياء النافع وتخليد المفيد كل هذا هو النقد الذى نرغب فيه وندعو إليه ونود لو اشتدت عناية الناس به وكثر إقبالهم عليه لأنه أقوم سبيل إلى نمو العقل المصرى وبلوغه أقصى منزلة تسمو إليها الأمم الناهضة من الرقى الصحيح

ذلك بأن أرقى ما يفزع اليه المصلحون فى التربية العقلية للأفراد والجماعات أن يمدوا ظل العقل ويبسطوا سلطانه على جميع الأعمال والآمال وكافة النزعات والحركات النفسية والجسمية التى تصدر عنا فى كثير من الأحيان من غير أن يكون للعقل شعور بها أو سلطان عليها

فالعقل الانسانى الآن سراج قاصر الضوء لا تكاد تهتدى به النفس الا إلى قليل من حقائق هذا العالم على

كثرتها وتشعب أطرافها وتعدد مناحيها

وإذا تلمسنا مصدر هـذا القصور لم يعد بنا البحث شيئاً واحداً هو ذلك السحاب المركوم الذى اشتركت المادة والقوة والوراثة فى إقامته حجاباً كثيفاً يحول بين هـذا السراج وبين كثير من الحقائق المختلفة فى الدين والسياسة والاجتماع

وقد كان هذا السحاب علة حقيقية لجمود العقل ووقوفه عن الحركة أو قلة نصيبه منها حتى لزمه كثير من الضعف والفتور

والغرض الحقيقى الذى يسمو إليه المصلحون من علماء التربية هو علاج العقل والطب له حتى يبرأ من هذا الضعف ويسلم من هذا الفتور ويصبح قادراً على أن يتناول جميع الحقائق أو أكثرها بالبحث والتمحيص ويستخرج منها وجه الصواب

وهذا مايسميه العلماء بقوة الحكم وشدة الملاحظة وما نسميه نحن الآن بالنقد الصحيح

فظهر من هذا شيآن أحدهما أن النقد ليس مقصوراً

على أنواع القول وفنون الكلام من نظيم ونثير بل هو عام يستطيع أن يتناول كل شيء من صنائع وأعمال وعلوم ونحو ذلك

الثانى أن سبيل النقدمظلمة مشتبهة الأعلام لا تسلك إلا بعد كثير من اقتحام العقبات وتجشم الأهوال وبعبارة واضحة لايمكن أن تبلغ أمة من النقد نصيباً موفوراً صالحاً إلا إذا استطاعت أن تقهر العادة والقوة والوراثة أى إذا تغيرت حالتها الفكرية تغيراً ظاهراً واضح الأثر

فنحن إذن لا نستطيع أن نبلغ من النقد ما نريد إلا إذا أمن أحدنا من أن يشاع عنه الكفر والالحاد إذا بحث بحثاً عقلياً صحيحاً عن قضية من قضايا الفلسفة والدين واذا لم يخف أن يرمى بالخيانة والمروق إذا نازع السواد الأعظم قضية من القضايا السياسية فلم ير رأيهم فيها ولم يمالئهم عليها وإذا لم يخش أن تبطش به القوة وينال منه البأس إذا نقد شيئاً من أعمالها وبين أنه مضر أو غير مفيد ومما لاشك فيه أننا لا نستطيع أن تبلغ هذه المنزلة إلا بعد أن ترقى فينا أساليب التربية رقياً كثيراً حتى تؤدى بنا إلى هذا الطور

الصالح من أطوار الحياة فسبيلنا إلى النقد إصلاح التربية وتهذيبها وإطراح الفاسد من أساليبها حتى ينشأ الشبان أحرار العقول قابلين للبحث عن كل شيء معترفين بأن الحق لا يمكن أن يكون مقصوراً على فرد من الناس دون فرد ولا محصوراً فى فريق منهم دون فريق

وإذا كان كل إصلاح لا يمكن أن تشعر الأمة بالحاجة إليه الا إذا شعر بهـذه الحاجة فذ من أفذاذها ونابغة من نوابغها وأخذ يدعو اليه مرة بالشدة ومرة باللين

وإذا كانت مخالفة العادة واطراح القديم مبغوضاً من كل جمهور كان من اليسير علينا أن نتبين السبب الحقيقى والعلة الصحيحة التى نشأ عنها بغض المصريين للنقد ومقتهم للناقدين

إنهم يحبون الحق ويشفقون به ولـكنهم يعتقدون بحكم العادة والوراثة أن الحق ما هم فيه وأن غيره هو الباطل فاذا قام بينهم من يقبح عادة من عاداتهم أو يسوئ رذيلة من رذائلهم نقموا منه وزروا عليه ونهضوا لتسفيه رأيه وتهجين خطته بمقدار ما أوتوا من قوة الدفاع عن الحق أو بمقدار ما أوتوا من قوة الدفاع عما يعتقدون أنه الحق وتلك

طبيعـة الانسان فى كل زمان ومكان فليس للناقد اذا كان مخلصاً إلا سبيل واحدة وهى صدق العزيمه واحتمال الأذاة فى نفسه ورأيه وعقيدته حتى يصل إلى ما يريد

إنهم يكرهون أن يقبل أحد منهم الدرهم والدينار من غير أن ينقد ويتبين مكانه من الجودة والرداءة ولـكنهم لا يكرهون أن تتقبل نفوسهم حقائق العلم وأنواع المعقولات من غير بحث ولا تمحيص ومن غير تفريق بين غثها وسمينها وليتهم إذ كرهوا أن يجهدوا أنفسهم بالنقد تركوا غيرهم وما يريد من تمحيص الحقائق لهم وتحقيقها قبل أن تصل الى عقولهم ولـكنهم لا يستطيعون لأنهم خاضعون لذلك السلطان القوى القاهر سلطان الاحتفاظ بالعادة والحرص على القديم

انهم يجهلون مقـدار المشابهة الشديدة بين النقد فى المعنويات وعمل الطبيعة فى الحسيات فلا يعلمون أن عمل الطبيعة فى تحليل المـادة وتركيبها وتحويلها من صورة إلى صورة اخرى ليس إلا نوعاً من النقد الحقيقى بل هو أصح أنواع الانتقاد لأن أقرب نتائجه إبقاء النافع المفيد وإفناء

الفاسد المضر فالوجل لايموت إلا إذا حقت عليه كلمة الطبيعة بعد النقد الصحيح وعرفت أنه لم يبق صالحاً للحياة وأن وجوده أصبح من أنواع العبث الذى يجب أن تبرأ منه الطبيعة ويتنزه عنه الله عز وجل وليس النقد فى الأشياء العقلية والمعنوية الا نوعاً من النقد الفطرى فنحن اذا عمدنا إلى قضية فى الفلسفة فبينا بعدها مانعتقد أنه الحق وأوضحنا نصيبها من مخالفة حكم العقل والحيرة عن طريق الصواب لم يكن عملنا هذا إلا إعانة للطبيعة على ما هى بازائه من محو الضار وإبقاء النافع

ولو أنهم علموا بذلك وأنعموا النظر فيه ما استطاعوا الا أن يكونوا للنقد أنصار ولرجاله مؤيدين نعم أن النقد فى المعنويات ليس الا اعانة للطبيعة على عملها فكلنا نعترف أن الباطل فى نفسه مفسد للعقول مقوض للعمران وأن أقدس واجب على الانسان هو ازهاق الباطل واظهار الحق ولئن كان هذا ظاهراً فى قواعد العلم وقضايا الفلسفة فهو فى فنون القول وأنواع الكلام أيضاً لا يحتاج الا الى شىء قليل من البحث والتفكير فاننا اذا عمدنا إلى قصيدة من الشعر

فعرضناها على النقد الصحيح وبينا وجوه الخطأ فى ألفاظها ومعانيها وفى نظمها وتنسيق الخيال فيها ثم طلبنا إلى القراء أن يتجنبوا ما أشرنا اليه من هذا الخطأ ويتلمسوا ما بيناه من الصواب لم نزد على أن بينا الحق والباطل ودعونا إلى نصر أحدهما وخذلان الآخر ولا شك فى أن أقل نتيجة تنتج عن ترك هذا النوع من النقد أو التقصير فيه هى فساد الشعر واضطراب أمره وقصوره عن أن يؤدي ما خلق له من اصلاح العقول والوجدان وأحياء الحق والفضيلة وإزهاق الباطل والرذيلة

وهذا ما نحن فيه الآن فقد نشأ من بغضنا للنقد ورغبتنا عنه ومن زهدنا فيه ومقتنا إياه انتكاث فتل الأدب العربى وانتقاض أمره فأصبح الشعراء والكتاب يسيرون فى الشعر والنثر على غير هوى لا يميزون خطأ من صواب ولا يفرقون بين فاسد وصحيح فقصائدهم ورسائلهم ليست إلا خليطاً سيئاً من الألفاظ الصحيحة والفاسدة ومن المعانى التى نصيب الباطل منها أكثر من نصيب الحق . . .

وهم على كل ذلك معجبون بأنفسهم مدلون بمكانتهم

والجمهور فيهم مغرور وبهم مخدوع لا يرى الكلمة إلا لهم ولا الحق إلا منهم ولا الصواب إلا فيهم أما الناقدون فهم عند الجمهور وعند هؤلاء الكتاب والشعراء أدعياء واغلون قدأ كل الحسد قلوبهم وأفعمت الموجدة صدورهم وعبث حب الصيت بنفوسهم فاتخذوا من نقد النوابغ وأفذاذ الرجال سبيلاً إلى الشهرة وطريقاً إلى سمو المنزل وعلو المكان

كلا كلا أيها الشعراء المفلقون والكتاب المجيدون والجمهور المخدوع ليس النقد كما تظنون سبيلا من سبل الشهرة أو طريقاً من طرق الصيت وانما هو مقياس الخطأ والصواب ومميز الحق من الباطل وهو المنظم لحركات عقولكم المصلح لنفثات أقلامكم الحافظ لجيدكم حق الاجادة والمرغم رديئكم على اتباع الجيد وابتغاء الرقي وإن أحدكم اذا نال الشهرة وبلغ الصيت باعانة النقد له وعدم قدحه فيه ونعيه عليه كان ذلك خيراً له من أن ينال تلك الشهرة ويبلغ هذا الصيت مكتفياً بثناء الجمهور وتقريظ الجمهور أولئك الذين لا ينفع ثناؤهم ولا يضر هجاؤهم لأنهم لم يؤتوا من العلم نصيباً قليلا ولا كثيراً . إذن فالنقد لكم صديق وليس عليكم حرباً كما تظنون

فكونوا له كما هو لكم فان بلوغكم رفعة المنزلة وسمو المكانة رهين بذلك وموقوف عليه

أثر النقد فى الامم

بعد ما بيناه من حقيقة النقد ومكانه من اصلاح العقل وتنظيم حركته لسنا فى حاجة شديدة إلى أن نكثر القول فى بيان أثره فى الامم لان مما لا شك فيه أن رقى العقل وانتظام حركته هما أرقى مطلب يطلبه المصلح فى أى أمة من الأمم أى ليس للامم مطلب اسمى ولا أجل من هذا المطلب واذا كان النقد كما بينا ليس مقصوراً على أنواع القول وفنون الكلام بل هو عام يشمل أنواع الاعمال والصناعات والعلوم كان رقى الامة فيه من أوضح الادلة على رقيها فى هذه الأشياء فان الصانع لا يبلغ من النقد فى صناعته منزلة صا [illegible] اذا مهر فيها وأحاط بدقائقها وأسرارها وكذلك الامر [illegible] النقد الادبى والعلمى وغيرهما من أنواع النقد ومن هنا يتبين أن الأسباب الحقيقية لسقوط أمر النقد فى مصر ضعفنا المطلق فى أنواع العلوم والصناعات وفى اليوم الذى ترقى مصر فيه رقياً ظاهراً فتدرك من الاجادة فى كل شيء طرفا

غير قليل لا يكون لها بد من إجلال النقد وإكباره ومن تصديق الظن به وتحسين الرأي فيه

ذلك شأن الامم لا ترقى فى شىء حتى تجعل النقد مقياس جيده ورديئه ومرآة خطئه وصوابه ومن اليسير علينا أن نتبين ذلك واضحاً جلياً فى تاريخ العرب فى جاهليتهم واسلامهم وفى بداوتهم وحضارتهم فانهم لما لم يكن لهم فى العصر الجاهلى نصيب موفور من الرقى فى غير فنون القول كان نصيبهم من النقد موقوفاً عليه ومحصوراً فيه فبلغ النقد الأدبى عندهم فى هذا العصر أرقى ما يمكن أن يبلغه فى أمة بدوية تمتاز بالفصاحة وحسن الاعراب وبزلاقة الألسنة وذرابتها وصدق البصائر وإصابتها ولك من أنباء عكاظ وأخبارها ومن أحاديثها وآثارها أصدق دليل على ذلك بل أن هناك دليلا ليس أنصع ولا أسطع منه على مكانة أولئك الناس من النقد الادبى فان الله عز وجل لم يجعل القرآن الكريم معجزة نبيه وبرهانه الا لأن أولئك الناس الذين بعث فيهم النبى كانوا من رسوخ القدم فى النقد اللفظى والمعنوى فى المكانة التى لا يساميهم إليها مسام ولا ينازعهم فيه شريك . .

ولو أن أولئك الناس لم يكونوا ذوى امتياز فى النقد وتفوق كثير ما كان الكتاب على فصاحته ومكانته من البلاغة فيما عندهم ولا مستجاداً لديهم وتلك قاعدة فطرية فان الشيء ذا القيمة الغالية والمكانة العالية لاينبه شأنه ولا ينبل أمره الا عند من له بامثاله علم ومعرفة

وبعد ظهور الاسلام وارتقاء العقل العربى ارتقت منزلتهم فى النقد واشتدت عنايتهم به ورغبتهم فيه وأخبارهم وآثارهم المستفيضة فى ذلك تغنينا عن إقامة الحجة وتكلف البرهان

وجملة القول أن النقد لا يكون راقياً عالى المنزلة فى أمة ما إلا إذا كانت هى فى نفسها راقية سامية المنزلة فى الموضوع الذى يتناوله النقد ويقصد اليه ولنا بعد هذا كله أن نقول انماتبلغه الأمم من رقى فى الحضارة وتفوق فى العلم وفوز بالسيادة وتمتع بانواع الحرية العقلية والسياسية والشخصية ليست إلا نتيجة لازمة لرقي النقد فيها فالنقد هو أحسن مقياس يمكن أن يقاس به صعود الامم وهبوطها ورفعتها وانحطاطها

شروط النقد

أما شروط النقد فقد كثر فيها قول القائلين وتعددت مذاهبهم واختلفت أهواؤهم ولاسيما فى هذا البلد الذى ليس للنقد فيه إلا مكان المبغض القالى ومنزل الممقوت النميم

فترى الكاتب أو الشاعر إذا ألح به الناقد فبين نصيب نثره أو شعره من الخطأ والصواب ومن الصحة والفساد أبرق وأرعد وأرغى وأزبد ورمى الناقد بتهم أقلها ممالأته للهوى واستجابته للحسد واسترساله فى الشتم والسب وغلوه فى الادعاء والغرور ولست الآن بإزاء القول المفصل فى شروط النقد ولكنى أقول على سبيل الاجمال أن النقد نوع من أنواع المناظرة فكل مايشترط فى الجدل يشترط فيه إذ كلاهما لم يصطنع الا لاظهار الحق وخذلان الباطل ولاشك فى أن الشتم والسب والتقريع والتأنيب ليس شىء منها بطريق إلى الحق وإنما الحق نتيجة البحث الهادىء المعتدل الذى يبرأ

من الاستجابة لعواطف الحب والبغض ونحوهما فلا يمكن أن يكون الناقد منصفاً اذا استجاب لعاطفه من هذه العواطف فمالأ خصمه وانحاز إليه أو ظلمه وألح عليه وإنما الانصاف مزاج لايعتدل إلا بصدق النية وحسن المقصد وتحكيم العقل ورفض الهوى وعدم الاستسلام الى العواطف والوجدان

واذا كان النقد فى كل شىء لا يصدر الا عن ذى العلم بذلك الشىء والتفوق فيه كان نقد الجاهل نوعاً من لغو القول وسخف الحديث وكان من الشروط الضرورية فى النقد العلم بالموضوع الذى يبحث الناقد عنه ويتكلم فيه

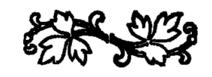
قالوا من ضروريات النقد أن يعترف الناقد بحسنات خصمه قبل أن يذكر سيئاته ليكون ذلك أدعى الى تصديق الظن به وتحسين الرأى فيه وعدم اتهامه بالميل أو الحسد أو الاستجابة للاهواء ولست أرى هذا الرأى ولا أميل إليه لانى أعتقد أن النفس التى لاتميل الى الحق الا اذا توسل اليها بانواع من الملق والتزلف وفنون من المدح

والاطراء خليقة ان لا يحفل بها الناقد ولا يلتفت اليها لانها انما ترغب فى الحمد والثناء لا فى الحق والصواب قالوا واذا كان الكتاب مؤلفاً فى الفلسفة الالهية مثلا فن الجهل نقد اغلاطه اللغوية ولست أدرى من أين لهم هذا الرأى فان للعالم بالفلسفة أن ينقد الكتاب فى موضوعه وللعالم بالالفاظ أن ينقد الكتاب فى ألفاظه ولم يقل أحد اننا انما نريد الرقى فى موضوع دون موضوع وانما نريد أن نرقى فى ألفاظنا كما نريد أن نرقى فى أفكارنا ولو اننا شايعناهم فى هذا الرأى ومالأناهم عليه لانعقدت ألسنتنا وتحطمت أقلامنا وغلت أيدينا بازاء ذلك الكاتب الذى يؤلف كتابه فى الطب والمنطق بلغة العامة ودهماء الناس

قالوا ولا يحسن بالناقد إلا أن يكون معتدل اللهجة بريئاً من الغلو فى التشهير بخصمه والفدح فيه وهذا حق لا ينكره الا مكابر أو عنيد ولكن ما لهم يكرهون قول الحق والاعتراف به ويعدونه نوعاً من الشتم وقاسى الكلام فلو انى قرأت فصلا من كتاب فضحكت من سخفه أو خجلت من جهل صاحبه وقلت فى نقده انه مخجل أو مضحك

لم أكن عنده الا سبابة سفيهاً مع انى لم أقل إلا الحق ولم أمل إلا إليه

ومبلغ القول أن شروط النقد كلها تنحصر فى شىء واحد وهو الاعتدال وعدم الميل إلى الهوى والغلو فى الثناء أو الهجاء



السيد محمد كرد على



رئيس المجمع العلمى بدمشق

وصاحب جريدة المقتبس

٤

السيد محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي بدمشق

وصاحب جريدة المقتبس

المختار فى نثره

الانشاء والمنشئون

اذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا باهل القرن الأول للاسلام . نرى على رأسهم أمير المؤمنين على ابن أبى طالب (كرم الله وجهه) . فانه سيد البلغاء على الاطلاق ، وواضع بنيان البيان العربى ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام ، ونهج البلاغة الذى جمعه الشريف الرضى من كلامه وشرحه ابن أبى الحديد كتاب الدهر الخالد. وقد عد كثير من الصحابة أئمة فى الكتابة والخطابة (راجع) « اعجاز القرآن » للباقلانى و « الاتقان » و « المزهر » للسيوطى .

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لأن التدوين لم يحدث فى الأمة العربية إلا فى أوائل القرن الثانى للهجرة وكانت تعمد على ذكراتها ومحفوظها ورواياتها

المتسلسلة . قال الرقاشى : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره . ومعظم الذى أبقته الأيام من أدب العرب لم يبرح محفوظاً فى الخزانة لم يطبع وأكثره محفوظاً فى جامعات أوربا ودور كتبها .

ختم القرن الأول بأمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز ، فإن رسائله الموجزة وخطبه الغر التى نقلها ابن سعد فى « الطبقات الكبير » وابن الجوزى فى « مناقبه » ، آية فى البلاغة وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه فى الادارة والسياسة على قلتها ، تربى فيمن يتدبرها ملكة الانشاء أو تقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وقطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان . وهذان الأخيران من خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهماً من كتاب « الكامل » للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضويين والشيوعيين فى الاسلام .

جاء القرن الثانى وقد نبغ فى أوله عبد الحميد بن يحيي الـكاتب وهو النهاية فى البلاغة والفصاحة ، اخترع للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبد الله بن المقفع الذى اسلست له الـكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة فى باب التكلف بل كان فى « اليتيمة » وسائر مافاضت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان فى ترجماته « كـكليلة ودمنة » طبقة عالية فى البلاغة . ولو عمر بن المقفع (عاش ستة وثلاثين سنة) لابقى لنا أمثلة فى البيان ، يتخرج بها طلاب الأدب من العرب على غابر الحقب . ونبغ فى هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذى وصلنا من رسائله نابغة فى علمه وأدبه ، وينقل عنه فى كتبه . كان كثيراً ما يؤلف الـكتاب وينسبه لسهل ابن هرون فى جمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبه لنفسه ، وكتابة سهل من السهل الممتنع ، لاحوشى فيها ولا مبتذل . أو كما قال الجاحظ فى الـكتاب « انهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعراً أو وحشياً ولا ساقطاً سوقياً . ومن خطباء هذا القرن داود بن على وشبيب بن شيبة ومن كتابه اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد وعمرو بن مطرف

كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب « الأدب والمروءة » وكلامه رشيق دقيق مستفاد فى الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله بن المقفع وعمارة ابن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن ابى شيخ وسالم بن عبد الله ومسعدة والهزير وعبد الجبار بن عدى واحمد بن يوسف . قال صاحب « الفهرست » ومن البلغاء المحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبد الملك . ولم يصل إلينا من كلام هؤلاء الجهابذة شىء اللهم إلا ما عرف من كلام ابن المقفع واحمد بن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم إلا نتفاً قليلة لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو إسحق الكاتب إبراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد على الله المتوفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والنثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة العذراء » فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة الى نشرناها فى « رسائل البلغاء »

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذى رزق الاجادة فى كل ما كتب وهو رب البديهة فى أفكاره ومظاهر علمه وتقريره . ولم يعهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة فى هذا القالب الفتان ، الذى يظهرها فيه غير متكلف ولا متعسف . وكلماته كلما كررته حلت أو بقدر ما تلوها تتجلى لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها . وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملك ناصية اللغة ، وبراعته فى استعمال الألفاظ فى أماكنها أو ربما تساهل فأورد ألفاظاً عامية فى معرض كلامه لينقل الأفكار بحالتها . ولم يكد يعهد مثله فى المجودين من المؤلفين من يريك ببيانه الباطل حقاً والحق باطلا ، يقول الشىء ونقيده فيقنعك فى الاول حتى لا تظنك تقنع بعد الكلام ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ما أصاب في الأولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التى أبقتها الأيام للمكتبة العربية زخراً وفخراً ، تشهد العجب من فننه وإبداعه وتدرك كيف تستجيب له المعانى ، وتنقاد الألفاظ برشاقتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل

والنوادر أحياناً لئلا يمل مطالعه هكذا تراه فى « كتاب الحيوان »و « البيان »و « التبيين »و « البخلاء »و« المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمحسود » وغيرها من رسائله وهى بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته وممن سيجىء « بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الأخبار الطوال » وأبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان « الجاحظ » أكثر حلاوة ومعانى أبو عثمان لائطة بالنفس سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وادخل فى أساليب العرب ، قال أبو حيان التوحيدى والذى أقول وأعتقده وآخذ به وأسامح عليه إنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى وثلث بأبى زيد احمد بن سهل البلخى ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبة .

ومما امتاز به هذا القرن أن علوم الأوائل التى بدىء بترجمتها فى منتصف القرن الأول فى دمشق بمعرفة خالد بن

يزيد الأموى وعنى بهـا عمر بن عبد العزيز اواخره ، قد زادت العناية بهـا فى بغداد على عهد المنصور العباسى ، ثم بلغت أشـدها فى زمن المأمون وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات فى العربية روحاً جيداً ، فترجم إليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ، فاغتنت اللغة ورأت من الأساليب والأفكار ما لاعهد لها وهذا أول تأثير من آداب الأمم الأخرى أصاب اللغة العربية فأصبحت لغة علم وصـناعة ، بعد أن كانت لغـة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو فى الحقيقة العصر الذهبي فى الأدب والـكتابة والعلم وسائر مقدمات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الـكاتب هو من أوائل البلغاء وقد أورد بعض رسائله الصولى فى كتاب « الأوراق » المخطوط وأورد له بن طيفور صاحب « كتاب بغداد » المطبوع نموذجات من رسائله وفى كتاب التراجم المطولة شيء عن كتاباته المسجعة على مثال السجع الذى يقع فى كلام أئمة البلاغة فى القرن الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتبه . والـكتاب المجودون فى هذا القرن

كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، وكان كاتباً بليغاً جزل العبارة وجيزها ، سديد المقاصد والمعانى ، وصدق عليه ما قاله الرشيد فى البلاغة « البلاغة التباعد عن الأطالة والتقرب من معنى البغيه ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وابن على الدامغانى الوزير وأبو الفتح البستى « صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الاليس البديع التأسيس

ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثاني الجاحظ بعلمه وجودة إنشائه وتأثيره ، وفى كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » ومختلف تأويل الحديث و « الأتربة » و « المعارف » و « عيون الأخبار » و « أدب الكاتب » ما يدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوقاً . فمن شرح « أدب الكاتب » لابن قتيبة ابن السيد البطليوسى وممن انتقدوا « آمالى القالى » أبو عبيد البكرى صاحب « معجم ما استعجم » فى جزء لا يزال مخطوطاً سماه « التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه » ويعد من كتاب الدرجة الأولى فى القرن الرابع احمد بن

يوسف المعروف بابن الداية (٣٤٠) بغدادى الاصل انتقل أبوه من مصر وكان احمد من كتاب الدولة الطولونية وقد عرفنـاه من كتاب « المكافأة » الذى نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن العقبى » وهى عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية البلاغة ومنهم أبو بكر الصولى (٣٢٥) صاحب كتاب « الأدران » و « أدب الكاتب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب العقد الفريد » وجعفر ابن قدامة بن زياد الكاتب (٣١٩) . وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفضالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بنى بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلا من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بدئ الشعر بملك أى امرئ القيس وختم بملك أى أبى فراس الحمداني . وما قيل فى ابن العميد يقال فى الصاحب ابن عباد (٣٨٧) فهو أيضاً ممن تناغى بالجناس، وأكثر من الأسجاع وكان يقول : كتاب العصر أربعة : الاستاذ الرئيس يعنى

ابن العميد ، والاستاذ أبو القاسم يعنى عبد العزيز بن يوسف وأبو اسحاق يعنى الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع يعنى نفسه

ويجىء مع هذه الطبقة أبو بكر الخوارزمى (٣٨٣) وكان يميل إلى طريقة ابن العميد فى الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الأسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها ، وقلما تفوته . وأما بديع الزمان الهذانى (٣٩٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه صار مع الطبع أكثر من الخوارزمى وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع ، وإذا استعملها ففى مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود إلى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابى » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس فى « صبح الأعشى » . قد أفرغ فى قالب من السجع البديع المتملح وقد يتخلى عنه فى بعض التقاليد والعهود ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته مفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

وممن نبغ فى ذلك القرن أبو الفرج الببغاء وعبد الله بن عمر والفياض كاتب سيف الدولة ونديمه وأبو القاسم على الاسكافى النيسابورى «كان من علو الرتبة فى النثر وانحطاطها فى النظم كالجاحظ» وعلى ابن هند وصاحب «الكلم الروحانية» ويحيي ابن عدى صاحب تهذيب الأخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستى (٣٥٤) صاحب «روضة العقلاء» والحاتمى صاحب «الرسالة الحاتمية» التى شرح فيها ما جرى بينه وبين أبى الطيب المتنبي من إظهار سرقاته وإبانه عيوب شعره والقاضى التنوخى (٣٨٤) صاحب «النشواء» و «الفرج بعد الشدة» وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب «قصة الشعر» و «كتاب الخراج» وابن نباتة صاحب «الخطب» المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفى والمقتدر وأبو منصور البغوى (٣٧٥) ورأس أدباء هذا القرن أبو العلاء المعرى والشعر غالب عليه وكتابته مصنعة فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن «رسالة الغفران» التى كتبها رداً على رسالة ابن القارح وكلاهما مطبوع أشبهت راوية

دانتى الشاعر الايطالى وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرة كان معلماً لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوربا على أن دانتى فى روايته الهزلية المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة التى ألفها بين سنتى ١٣٠٠ — ١٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعرى ونسج على منواله فى التصور . وإن ما كتبه المعرى على ديوان أبى تمام الطائى وسماه « ذكرى حبيب » وعلى ديوان أبى عبادة البحترى وسماه « عبث الوليد » وما كتبه على ديوان أبى الطيب المتنبى وسماه « معجزة أحمد » يدل على إحاطة المعرى بأسرار العربية وفهم كلام العرب ومراميهم وشدة ملكته فى النقد الأدبى دع فلسفته فى لزومياته » و دواوينه فالمعري فيلسوف لغوى وليس بكاتب

ومنهم على بن خلف صاحب « مواد البيان » الذى نقل القلقشندى فى صبح الأعشى جزءاً مهما منه .

***

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه

ومن أشهرهم الذين تركت الأيام لنا شيئاً من كتاباتهم الأمير قابوس بن وشمكير (٤٠٣) صاحب « كمال البلاغة » فان كتاباته هي الموسيقى برنتها، والشعر الفنان، ولكن بدون قافية وروى، إلا أن الأسجاع غالية عليه، مستحكمة في حواشي كلامه، آخذة بجماع أدبه خلافاً للثعالبي (٤٢٩) سيد كتاب هذا العصر، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والأدب، فان مقدمة كتابه «فقه اللغة» لطبقة عالية في الكتابة المرسلة في عصره وبعده ولو تخلى عن السجع في « يتيمة الدهر » التي ترجم فيها أدباء عصره نحو ما تركه في « المضاف والمنسوب » و « لطائف المعارف » وغيرهما من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء. ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب « العمدة » أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في رسائل الانتقاد وكان الناس في الدهر القديم يعتمدون على أربعة كتب لاتقان فن الادب. « البيان والتبيين » للجاحظ و «أدب الكاتب» لابن قتيبة و «الكامل» للمبرد و «الأمالي» لأبي علي القالي. ومن هذه الكتب الأربعة ما شرح ومنها ما اختصر ومنها ما انتقد

وممن توفى على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدى وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها فى كتاب « المقابسات » و « رسالة الصديق والصداقة » و « الاشارات الالهية ».
وذكر الثعلبي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو أحمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازى وأبو القاسم على بن القاسم القاشانى وأورد من كلامهم نموذجات لطيفة. ويعد فى الطبقة الأولى من المؤلفين والكتاب المجيدين أبو الفرج الاصفهانى صاحب «الأغانى» وأبو الحسن على بن عبد العزيز صاحب كتاب « الوساطة » بين المتنبي وخصومه والأمير عبد الله الميكالى فانه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو النصر العتبي واضع «تاريخ ابن سبكتكين» المعروف باليمنى وهذا التاريخ المسجع البديع يعد مؤلفه من أكبر المنشئين

ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن ناقيا (٤٨٥) والموفق بن الخلال وصاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العبيدى بمصر « وكانت له قوة على الترسل يكتب كما يشاء »

وكان الغالب على الموفق بن الخلال فى رسائله العناية بالمعانى أكثر من طلب السجع «كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة العلوية غضاً طرياً وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رئيس يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا» وممن أثرت بعض رسائله فى هذا القرن هلال بن المحسن الصابى (٤٤٨) حفيد أبى اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب أخبار الوزراء » ومن المجيدين فى الانشاء وان عدهم الناس فى طبقة الحكماء احمد بن مسكويه « ٤٢١ » مؤلف « تهذيب الأخلاق» و(الفوز الأصغر) و (تجارب الامم) فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع

ومنهم أبو طاهر محمد بن حيدر ٥١٧ صاحب قانون البلاغة وهو لم يطبع

***

وفى هذا العصر نبغ فى الأندلس الوزير بن زيدون ٤٦٣ في النظم والنثر ورسالته على لسان ولادة بنت المستكفى بالله أديبة عصرها من المرقص المطرب . ومثل ذلك يقال فى الوزير ابن حزم الأندلسى ٤٥٦ فانه من أكتب

العلماء فى عصره ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه وناهيك بكتابه طوق الحمامة و رسائله فى الأخلاق دليلا على أدبه الراقى ومثالا من انشاء عصره الذى أشبه الأدب فى عصر لويز الرابع عشر فى فرنسا

ونشأ فى هذا القرن والذى يليه فى الأندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى الوزارة . والغالب ان الكاتب المجيد فى الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب المصقع فى هذا الدهر يكون رئيس وزراء . مثل الباجى وابن الدباغ وابن الجله وابن القاسم وأبى الأصبغ وابنه أبى عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون وابن أبى الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة وكان هذا على طريقة قدماء الكتاب من إتيان جزل الالفاظ ، وصحيح المعانى ، من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخروا الكتاب اللهم ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ، ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الأفطس وابن أمين وابن سالم ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن اللبانة وابن عبدالبر والفرضى وابن سعيد المؤرخ وابن حيان

وابن القطوية وابو عبيد البكرى صاحب معجم مااستعجم والمسالك والممالك وابن الطفيل صاحب رسالة حى ابن يقظان وفيها إشارات لمذهب النشوء والارتقاء. ومنهم البطليوسى وابن تومار وابن هود والنحلى والاشبوني والقسطلى وابن لبون وابن رزين والنمرى والسرقسطى وابن القلاس والصناعى والبهارى والحجازى والدانى والبلنسى والطيلطلى وغيرهم وما منهم إلا منشيء مجدد ومؤلف جزل العبارة رشيق الألفاظ . ولا غرو فان الأندلس اخرجت للادب رجالا عظاماً ، تشم من مكتوباتهم أرج الغرب وقد جمع كبار أحد المشرقيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأديب وفقيه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة وترجم الفتح بن خاقان ٥٣٥ صاحب قلائد العقيان و مطمح الأنفس لبعض أولئك الأدباء بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم ولغيرهم بن بسام فى الذخيرة واشتهر بالوزارة من الكتاب المجودين فى بغداد الوزير على بن عيسى والوزير أبو الحسن بن الفرات . ولعلى ابن عيسى مذهب فى الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك

الزيات الى غيرهم من الكتاب النابهين والخاملين وربما كان الخاملين من هم أعلى كعباً من النابهين سنة ٥٦

وممن اشتهر بنثره فى هذا العصر الحريرى ٥١٠ صاحب المقامات و درة الغواص . وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضاً من النثر المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالى ٥٠٥ لاخترنا كتابة الغزالى ولاسيما فى الجزء الثالث من الاحياء ورسائله التى أبان فيها عن طبعه خصوصاً التفرقة بين الاسلام والزندقة و تهافت الفلاسفة والرد على الباطنية أو نثر الراغب الاصفهانى فى « الذريعة الى مكارم الشريعة » و « تفصيل النشأتين » و « المحاضرات» أو الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » و « الاحكام السلطانية » . وفى كلام الحريرى صناعة التعمل قد يصل اليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا كدهم ويتعملوا فى منثورهم . وكان بن الخشاب يقول ان الحريرى رجل مقامات أى أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل جار الله الزمخشرى ٥٣٨ يفوقه باجادة صناعة النثر فسجعاته فى « تفسيره و « المفصل

و « اساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب » و « الكلم النوابغ » و « الفائق » فى الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين رشيد الدين الوطواط صاحب «الرسائل» المطبوعة المسجعة محاورات ومراءات والزمخشري أرقى بياناً وأوسع علماً. ويعد فى كتاب هذا القرن أبو الفرج بن الجوزى ٥٩٧ الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب « الاذكياء » و « أخبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شىء بما يطلق عليه الافرنج اسم « Holklore » أى العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير فى العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب المفسر وقد حدث التاريخ أن كثيراً من الكتاب ولا سيما فى القرون الأولى وضع حكايات أشبه شىء بقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو إحداث مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث فى شأن مهم للدولة ، وقد صنفوا كثيراً فى الأسمار والخرافات منها ما عربوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ما ابتدعوه ومنهم من كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية ومنهامن ذكر الحبائب المتظرفات أو اكتفى بأخبار العشاق

الذين تدخل أحاديثهم فى السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت فى الشرق العربى ومثل ذلك يقال فى قصة السندباد البحرى والظاهر وتغريبة بنى هلال إلى غير ذلك مما لا يعد فى الأدب الراقى لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

وممن نشأ فى هذا القرن ضياء الدين بن الأثير صاحب « المثل السائر » فهو أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذى تصدى ابن أبى الحديد المدائنى لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات فى كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » وسيد المنشئين على التحقيق فى هذا العصر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فهو حجة المنشئين سواه من ترسل بالسجع أو تخلى عنه مع أنه لم يكن يفارقه على الأغلب ولو انتهت إلينا رسائل كلها لجاءت بضعة مجلدات والتقليل المقتبس منه فى صبح الأعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له فى « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويجىء بعده فى المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهانى فهو سالك طريقته ، ولكنه فى دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب بهجه

العلم وان كانت صحيحة وكتاباه « الفتح القسى » و «زبدة النصرة» نموذج أدبه ، ورامور صالح من سجعه وترسله وقد نشأ فى عصر القاضى الفاضل والعماد الكاتب ، كاتب هزلى اسمه الوهرانى ركن الدين أبو عبد الله محمد ٥٧٥ عمل «المنامات والرسائل » المشهورة التى لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضى الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال ابن خلكان فى وفيات الاعيان فعمد الى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ذكر فيه قصصاً فى الشجاعة وقعت له ولأسرته أصحاب قلعة شيزر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة . ومنهم يحيي ابن زيادة الشيبانى انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء ، وابن الصيرفى صاحب الاشارة الى من نال الوزارة و قانون ديوان الرسائل

وممن كان فى القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية فى الانشاء محيي الدين بن عبد الطاهر ٢٩٦ وابنه محمد فتح الدين . ويعد الأب والابن من واضعى

نظام الانشاء فى عصرهما والعصرين التاليين. وابن عبد الظاهر أضعف فى البلاغة بما ورد له فى صبح الأعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه فى الميلاد . وممن عرف بالبراعة فى تصوير البلدان والآثار عبد اللطيف البغدادى الفيلسوف ٦٢٩ فان كتابه الأدب والاعتبار شاهد له بانه من خيرة البلغاء فى عصره . ومنهم الوزير عبد المحسن ابن حمو ٦٤٣ وبهاء الدين الأربلى والكمال بن العديم ٦٦٦ سنة ١٧١

وتعد رحلة بن جبير الكنانى الأندلسى (٦١٤) الى الشرق من الأدب العالى فقد وصف البلدان فى عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل ابن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدرى (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والزركشى (٧٩٤) وابن أبي البركات النجدى (٨٩٥) على أن الجمل التى أثرت عن ابن بطلان فى مطولات الجغرافية — وكانت رحلته من العراق الى الشام فى النصف الاول من القرن الخامس — تنم عن أدب وفضل ذوق فى وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل فى معجم البلدان لاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسى أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩هـ — يدل أيضاً على ذوق

وفضل علم وأدب . وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد فى جملة الأدب الجيد ما كتبه ياقوت الحموى فان «معجم البلدان» و « معجم الأدباء » من أنفس ما كتب الكاتبون فى هذا القرن كما أن ما كتبه القفطى (٦٤٦) فى « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبى أصيبعة (٧٦٦) فى «طبقات الأطباء » يعد من الأدب العالى فى تراجم الناس. ومن هذه الكتب الأربعة التى طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة فى الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا « تاريخ الرسل والملوك » لابن جرير الطبرى « ومروج الذهب للمسعودى » و « الكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبي » و « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء» لحمزة الاصفهانى و « الفخرى » لابن الطقطقى و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً لجغرافيي العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا الاقتصادى والعمرانى وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير اللمعية

ومن كتاب القرن الثامن فى مصر والشام ابن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار) و(التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و «تحفة ذوى الألباب» و «نكت الهميان» و «جنان الجناس» و «دمعة الباكى» والشهاب محمود الحلبى صاحب «حسن التوسل فى معرفة صناعة الترسل» وعلاء الدين غانم وأحمد الانصارى وابن القيسرانى وكمال الدين الزملكاني . ونبغ فى الاندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم تكن له إلا «الاحاطة فى أخبار غرناطة» لكفى فى تفوقه فى كتابته وشعره فانه صور وترجم لهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفح الطيب للمقرى يحوى طرفاً صالحاً من نظم لسان الدين ونثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون ٨٠٨ وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبد الرحمن ابن خلدون

ولسان الدين بن الخطيب ولم تكد تكتب العلوم الاجتماعية والتاريخيه قبل ابن خلدون يمثل ذلك اللسان الذى استعمله لاوغرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الأندلس، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الاندلس

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والأخذ من فن الأدب العربي الواسع ، فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التنافى بالأدب والانشاء لأن التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد فى كل قطر عربى يستخدمونه حليـة وزينة ، وإذا لم يبق فى الحكومات من يقدر الأدب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وإمكان الانتفاع به فى المديح . وإن كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

شوقي الناثر يصور الوطن

لأمير الشعراء أحمد بك شوقي

الوطن موضع الميلاد . ومجمع أوطار الفؤاد . ومضجع الآباء والأجداد . الدنيا الصغرى ، وعتبة الدار الأخرى . الموروث الوارث ، الزائل عن حارث الى حارث . مؤسس لبان ، وغارس لجان ، وحي من فان ؛ دواليك حتى يكسف القمران ، وتسكن هذى الأرض من دوران

أول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب مس الراحتين ، وشعاع شمس اغترق العين . مجرى الصبا وملعبه ، وعرس الشباب وموكبه ، ومراد الرزق ومطلبه ، وسماء النبوغ وكوكبه ، وطريق المجد ومركبه . أبو الآباء مدت له الحياة فخلد ، وقضى الله ألا يبقى له ولد . فان فاتك منه فائت ، فاذهب كما ذهب أبو العلاء عن ذكر لا يفوت وحديث لا يموت

مدرسة الحق والواجب ، يقضى العمر فيها الطالب ، ويقضى وشيء منهما عنه غائب . حق الله وما أقدسه وأقدمه ، وحق الوالدين وما أعظمه ، وحق النفس وما ألزمه . الى أخ تنصفه ، أو جار تسعفه ، أو رفيق فى رحال الحياة تتألفه .

أو فضل للرجال تزينه ، ولا تزيفه . فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدمة ، وأعباء أماناته المعظمة . صيانه بنائه ، والضنانة بأشيائه ، والنصيحة لأبنائه ، والموت دون لوائه . قيود فى الحياة بلا عدد ، يكسرها الموت وهو قيد الأبد

رأس مال الأمم فيه من كل ثمر كريم ، وأثر ضئيل أو عظيم ، ومدخر حديث أو قديم . ينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار ، ويربو على الرذاذ كما يربو على الوبل المدرار ، بحر يتقبل من السحب ويتقبل من الأنهار . فيا خادم الوطن ماذا أعددت للبناء من حجر ، أو زدت فى الغناء من شجر . عليك أن تبلغ الجهد ، وليس عليك أن تبنى السد . فانما الوطن كالبنيان فقير الى الرأس العاقل ، والساعد العامل . والى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة . وكالروض محتاج الى رخيص الشجر وثمينه ، ونجيب النبات وهجينه ، إذ كان ائتلافه فى اختلاف رياحينه . فكل ما كان منها لطيفاً موقعه ، غير ناب به موضعه . فهو من نوابغ الزهر قريب ، وان لم يكن فى البديع ولا الغريب

حظيرة الاعراض والعروض ، ومحراب السنن والفروض وسيد الأديم ، صفحاته التاريخ الكريم ، وبوغاؤه عظم

الأبوة وانه لعظيم ، وعلى جوانبه الدولة وهى حسب الأمم الصميم . وثم كرائم الأموال والأنفس وهى غوال ، وثم ثمرات الرجال ، وضنائنهم اللاتى خلف الحجال . فيا عجبا كيف يجحد الأوطان الجاحد ، أو يزعم أن الارض كلها وطن واحد . قضية تضحك النمل فى قراها ، والنحل فى خلاياها . وتستبهم على الطير فى أوكارها ، وعلى السباع فى أجحارها . وينبئك عنها السمك اذا اتخذ من البحر وطناً شائعاً ، فولد مهدوراً وعاش ضائعاً . صغاره طرائد ، وكباره موائد ، ويتصيد بعضه بعضاً إن أبطأ الصائد

والوطن شركة بين الأول والآخر ، وبين الحاضر والغابر . لا يرث لها عقد ، وان تطاول العهد ، مؤسسه بالمهد حيناً وباللحد . يدخلك فيها الميلاد ، ولا يخرجك منها النفاد ، فقد تضرم النار وأنت هامد كالرماد ، وقد تحيي بك الديار وأنت بواد والحياة بواد

والوطن مستودع المفاخر ، وصوان المآثر ، وخزانة الأعلاق والذخائر . لكل متقن منها موقعه ، ولا ينبو بصالح فيها موضعه . الهرمان لديها معظمان « وشيخ البلد » شيخ الصناعة على الزمان . وعندها سيف «على» ومغارسه ،

وقناة «اسماعيل» ومدارسه. وفيها القصائد البارودية، وليس فيها الخطب النديمية. تلك لقربها من كلام الحكمة، وهذى لبعدها عن الاتقان والحشمة، فيالك خزانة تميز الصحاح من الزيوف وتعرف الضيفن من الضيوف، وتحجب العصى وتأذن للسيوف

صحيفة الأخبار، وكتاب الأبرار وسجل الهمم الكبار. أسماء المحسنين فيه مرفوعه. وأفعالهم مثل للخلف منصوبة وحروف بماء الذهب مكتوبة. فاذا أتت السنون، ودارت على الرجال المنون. ولحقت بالمشايع الشيع، وذهب المتبوع والتبع. ونامت الحوابي عن الشموس، وحيل بين النار وبين المجوس. انفتح كتاب الوطن من نفسه واذا الحسنات ثم على الصدق محصاة، فلا الحصاة درة ولا الدرة حصاة. واذا الرجال يعظمون على الأفعال، واذا الوقائع قد نحت منها الابطال. على قدر العمل يأتى الجزاء، وبقدر جمال الأثر يكون حسن الثناء

وليس أحد أولى بالوطن من أحد. فما «باستور» والشفاء فى مصله، ولا كمال والحياة فى نصله، أولى بأصل الوطن ثم وفصله. من الأخير المحسن الى عياله، الكاسب على أطفاله،

الفادى الوطن بأشباله ، وهم رأس ماله . فلا تتحمد على الأوطان بآثاركم ، وان حملت عليها الهرم ، أو نقلت اليها إرم . فانك لم تزد على أن أقمت جدارك ، وحسنت دارك . ولا تنس أنها الالة التى رفعتك ، والهالة التى أطلعتك . ولا تحجب ذات الوطن بذاتك ، أو تطرف العيون عن وجهه بقذاتك . ولا تكن كالسرح العظيم إذ نسى خلقه إذ علا على الأرض وهى أمه . ماؤها عصارة عوده ، وطينها جرثومة وجوده . حتى إذا ترعرع وكبر أخفاها وظهر ، وحجب عنها الشمس والقمر . خلعت عليه ما نضر ورف . وألقى عليها ما يبس وجف

والوطن لا يتم تمامه ، ولا يخلص لأهله زمامه . ولا يكون الدار المستقله ، ولا الضيعة الغله . ولا يقال له البلد السيد المالك ، وان تحلى ألقاب الدول والممالك . حتى يجيل العلم فيه يد العماره ، ويجمع له بين دولاب الصناعة وسوق التجارة . فيا جيل المستقبل ، وقبيل الغد المؤمل . حاربوا الأمية فانها تمساح الأمم وسرطانها ، والثغرة التى تؤتى منها أوطانها . ظلمات يعربد فيها خفاش الاستبداد ، وقبور كل

ما فيها لضبعه غنيمة وزاد . وتذرعوا بذوائع العلم الصحيح أطلبوه فى مدارس الزمان وحلقاته ، وخذوه على جهابذته وثقاته . واعلموا أن أنصاف الجهال لا الجهل دفعوا ، ولا بقليل العلم انتفعوا . وبنو الوطن الواحد أخوة وان ذهب كل فريق بكتاب ، ووصلت كل طائفة من باب ، واتبع أناس الانجيل ، وأناس اتبعوا التنزيل ، وكل بلاد تسوسها حكومة فاضلة ، وتقيدها القوانين العادلة ، وتعمرها جماعة عاقلة عاملة ، إنما يفرق فيها الوطن الذى هو الحياة وشئونها ، والدنيا وشجونها ، والحكومة نظمها وقانونها ، والمملكة سهولها وحزونها ، والدولة أطرافها وحصونها ، وبين الدين الذى هو السماء الرفيعة ، والذروة المنيعة ، ولاية الضمائر ، وسياسة السرائر

ربنا وانزلهم على أحكام العقول وقضايا الأخلاق . ولا تخلهم من العواطف ، وان كن عواصف . ولا تكلهم للأهواء ، فانها هواء . وخذهم بروح العصر وسنة الزمان ، واجعلهم حفظة العرش وحرسة البرلمان

الكاتب "الاجتماعى القدير



الأستاذ محمد بك فريد وجدى

٥

الكاتب الاجتماعى القدير

الاستاذ محمد بك فريد وجدى

حياته

محمد بك فريد وجدى هو ابن صاحب العزة المفضال مصطفى بك وجدى وكيل محافظة السويس ولد فى مدينة الاسكندرية عام ١٨٧٥ وأدخل المدرسة وهو فى الرابعة من عمره وأول مدرسة التحق بها هى (مدرسة اسماعيل افندى حتى بالاسكندرية) وانتقل منها بعد أربعة أعوام إلى مدرسة (حمزة قبطان) وبقى فيهـا حتى أتقن القراءة والكتابة ثم أدخل الى مدرسة كانت (للمسيو فالو) حتى سنة ١٨٨٢ نقلت الحكومة حضرة والده الى مصر فتبعه وأدخل (المدرسة التوفيقة)

وقد بدا له أن يختصر سنى الدراسة فأحضر له والده مدرسين بالبيت يعلمونه وبينما هو كذلك إذ صدر أمر بنقل حضرة والده الى ثغر دمياط فتوجه معه

وهنا ابتدأت تظهر أفكار الكاتب الصغير بأحسن مظهر وأخذ يفكر فى موضوع التناقض بين العلم والدين وشغله حب ذلك الموضوع ومال الى الوقوف على حقيقة كل فترك سير الدراسة القانونية وعكف على مطالعة العلوم

الاجتماعية والنفسية وآخذ يدرس الفلسفة وحده ليصل الى حل ما أشكل عليه لعدم وجود من يرشده من هذا الطريق العصرى واستمر فى دراسته هذه لا يلوى على شىء غيرها حتى عام ١٨٩٨ حيث وضع كتابه الذى يعتبر بمثابة مختصر لأبحاثه فى الدين وسماه « تطبيق الديانة على نواميس المدنية »

ثم نقل حضرة والده الى السويس فرحل معه وهناك أظهر الى عالم الصحافة مجلة الحياة

وهذه المجلة تعتبر من أكبر المجلات العصرية وأحسنها وأجودها أسلوباً وأعلاها إنشاء وأجلها مباحث دافع فيها الكاتب عن الاسلام بأحسن الأدلة العصرية الفلسفية وأظهر فيها عظيم اطلاعه وسعة فضله وخدم فيها الدين خدمة عظيمة

وقد أخذ يعد للدفاع عن بلاده أعظم عدة من العلم والثبات والبلاغة ولما تمت عدته رأى أن البلاد المنعزلة البعيدة لا تكفيه ليؤدى فيها خدمه ومالت نفسه الطيبة الى الدخول فى معترك العالم ليدافع عن بلاده ورأى أن من أسلحة هذا الكفاح إصدار جريدة يودع فيها أفكاره ويدافع بها عن مبادئه الحره

المختار من نثره

كيف تؤدب البنات

أحسن الأساليب فى ذلك

أساليب تربية البنات فى العالم كله معيبة وفى حاجة ماسة الى التهذيب. وقد أظهر الفيلسوف الانجليزي الكبير (هربرت سبنسر) غاية السخط فى كتابه (التربية) على طريقة تعليم الأناث فى بلاده وسرد لها عيوباً جمة . فاذا كانت هذه حال التربية النسوية فى انجلترا فما ظنك بها فى سواها ؟

أنا فى هذه العجالة لا يعنينى انتقاد هذه الأساليب فى تفصيلاتها ، وإنما أقصد منها اليوم أمراً واحداً وهو كيفية تلقين الأدب النفسى للناشئات فى معاهد التعليم عندنا

الأمر فى نظر الجميع هين . وربما كان درس الأخلاق أهون الدروس على المعلمين ، والعادة فيه أن يلقى المدرس على المتعلمات درساً أشبه بخطبة يجتهد فيها فى وجوب الامتناع عن منهيات الشريعة ، وينصح لهن بالتصون عن مزالق الزلل

ومواطن الريب ، والنزول على حكم من له اليد العليا عليهن من أهلهنّ وذويهنّ الخ ، ثم يأمرهنّ أن يطالعن فى كتاب من الكتب الموضوعة فى آداب المرأة وهو لا يخرج عما سبق بيانه أو يزيد عليه فى التحريج والتشديد ، والانذار والوعيد ظنا من المعلمين والمربين أن الاكثار من النصائح والذهاب فى التشديد مذهب المغالاة يطبع فى روع البنات صورا ذهنية من الآداب العليا تزعهن عن الرذائد متى عرضت لهنّ وتقيهنّ شر الوقوع فى الحبائل إذا نصبت فى طريقهن

ونحن مع إيماننا بأن الزواجر تنطبع فى النفس الناشئة ويكون لها أثر فى تأخير وقوعها فى الآثام العارضة لها ، ولكن هذا الأثر لا يتعدى حد النزاع بين صورة ذهنية تنفر منها الطبيعة لمنافرتها لاغراضها ، وبين حقيقة مادية كل ما فى تلك الطبيعة يدعو اليها ، ويترامى عليها ، فلا تلبث هذه المعركة القصيرة الأمد أن تنجلى عن تعفية أثر تلك الصورة الذهنية ونقش صورة أخرى مكانها تمليها الأهواء بلا منازع

ليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فان كل التشديد الذى

تسمعه البنت من المعلم وتقرأه فى كتاب التربية ويصور لها الحياة بصورة خشنة مظلمة ، ينقلب الى تمرد على الأخلاق متى تيقظت فى نفسها الغرائز الجدية والقلبية ، لأنها ترى البون شاسعا بين ما يجب مربوها أن تكون عليه ، وبين ما يدعوها المجتمع وكل ما فيه إليه

ليس غرضنا من هذه المقابلة بين التربية وبين الواقع أن نثبت عقم التربية ، وافلاس أساليب التأديب على الاطلاق ، ولكن غرضنا أن نثبت نقص الأساليب المعول عليها ، وقصورها عن انتاج الآثار المنتظره منها

فى رأيى أن تربية البنات لا يجوز أن ترتكز على الأمر والنهى والاكثار من الزواجر ، بل على إيقاظ الغرائز الأدبية الكامنة فى نفوسهن ، وأثارة القوى المعنوية الثاوية فى طبيعتهن ، وهو عين الأسلوب التأديبى الذى أختاره أنا لكل نفس إنسانية من أى جنس كان صاحبها

فأرى أن يعمد فى تربية البنات إلى بيان قيمة الأنوثة وكرامتها ، وما يتوقف عليها من حفظ النوع وتكميل الرجولة وما يناط بها من ترقية المجموع وتلطيف شعوره ،

ورفع مستوى إنسانيته ، بما أودعته من الغرائز الفاضلة والقوى الكامنة ، والقدرة على قلب الأحوال الأدبية فى العالم متى أرادته وعملت عليه

يجب أن يبين كل هذا للبنات مع إيراد الأمثلة وإقامة الأدلة على كل نظرية منها والتوسع فى ايراد تراجم النسوة اللاتى كان لهن تأثير كبير فى ترقيـة المجتمعات ، ويجب أن يشفع كل هـذا ببيان تاريخ المرأة وما كانت عليـه من يوم إن أمكن الحصول على تاريخ الانسان ، ولكن لايجوز التلاعب بهذا التاريخ ليوافق هوى خاصاً أو مذهباً معيناً ، بل يجب أن يعطى كما هو فى حلته التاريخية الصادقة وان كان فيـه ماينافض الآراء الخاصة أو العامة ، لان الغرض تنوير السنن الاجتماعية ، والاصول العمرانية من تعاقب الحوادث على الامم ، وتتالى الادوار التى دخلت فيها ، والعوامل التى ورطتها فى تلك الأدوار . فاذا حرف التاريخ الى وجهة غير وجهته ليستدل منه على صحة مذهب أو رأى لم يمكن الوقوف من هذه الحوادث المحرفة على حقيقة السنن الآلهية ، ولا معرفة الاتجاه الذى تأخذه فى سيرها ، ولا إدراك العوامل الصحيحة

التى دفعت الامم الى مادفعتها اليه ، بل تحصل لنا من ذلك معلومات ضالة لايمكن الأخذ بها لأنها غير طبيعية

فتاريخ المرأة عريق فى الحرية والاطلاق بل وفى السيادة ويظهر من عموم هذه الحال فى طوائف الانسان القديم أنها الأصل فى الوضع الطبعى ، وإن ماطرأ بعدها من أسرها وادخالها تحت الوصاية ، كان من الأوضاع البشرية المحضة ، فهذا التاريخ يجب تدريسه للبنات على ماهو عليه لينبه فيهن ما كمن فى أطواء طبيعتهنّ من عاطفة الأنفة والترفع

فاذا أضيف الى كل هذا درس فى الاخلاق مبنى على المباحث البسيكولوجية العملية ، لاعلى الآراء العتيقة القائلة أعنى هذا عن ألف كتاب فى الاوامر والنواهى يحفظها البنات حفظاً ولا يكون لها من سلطان عليهنّ ، متى بلغن أشدهنّ ، واندفعن فى تيار الحياة على ماهى عليه فى الواقع

اذا جرت تربية البنات على هذه السنة فتحت فى قلوبهنّ عالماً من القوى المعنوية حبسها فيها ماوقعت فيه المرأة من الأسر ، وما أحيطت به من التقاليد والتكاليف الموبقة في قرون طويلة متعاقبة ، وأدركن حقيقة مكانهنّ فى

الوجود الانسانى، وكنه وظيفتهن فى المجتمع ، وحد قيمتهن حيال الطبيعة ، ومبلغ قدرتهن فى العمل للتقدم العام

هذا الادراك يرفع أنفسهن عن التسفل للدنايا، ويدفعهن بالعوامل النفسية التى ينشئها الى أبعد ما يتخيله العقل من الكمال والفضيلة . نعم أن الوصول الى اصلاح هذا الجنس برمته لن يكون طفرة ، ولا بد من مرور أمد ليس بقصير حتى تتوطد أساسه ، وترسخ أصوله . وحتى تتجه هذه التعاليم الممهدة له إلى وجهتها القويمة ، ولا تؤول إلى عكس المقصود منها ، ولكن المصلحين لا يبالون بأمثال هذه العوارض مادامت الغاية مضمونة ، وما دامت هذه الطريقة هى الوحيدة للايصال إلى هذه الغاية الكريمة

قد يقول معترض أن هذا الأسلوب من بث روح الانفة والترفع فى روح المرأة ، يبعثها على التمرد على الأصول المقررة ، ويدفع بها إلى الامعان في سبيل التبرج الذى أختطتها لنفسها فى هذا العهد الأخير

وجوابنا عن هذا أن الأساليب القديمة قد ظهر عجزها بظهور الحال التى يشكو منها المعترض ، فلو كانت صالحة

لمنعت حصولها أو لوقفتها عند حد ، والمشاهد أنها آخذة فى التفاقم والاستشراء فلا بد إذن من تغيير هذه الاساليب بما هو أصلح منها ، وأجلب للغرض المقصود من التربية ، ولا يعد وجود أسلوب أوفى بأنهاض جنس برمته أرقى من اللجأ إلى عوامله الذاتية المودعة فى طبيعته الجنسية ، وقد ثبت أن الجبلة النسوية ثرية فى المواهب العلوية ، فعملنا على إثارة تلك المواهب وتنبيهها ، والاستعانة بها على مانحن بصدده أولى من اللجأ إلى الوسائل الصناعية التى تقوم على طمس تلك المواهب . وقيادة ذلك الجنس برمته قيادة استعبادية

وليت هذا الاسلوب القمعى على مافيه من إخماد أجل المواهب الآلهية ، من أجمل الكائنات الأرضية ، تأدى باهله الى ما قصدوه من وضعه ، فقد تأدى الى إفساد نصف البشرية على وجوه شتى . وهذا الاصلاح التهذيبى الذى نشير به لابد من التعويل عليه فى يوم من الايام لأنه الطريق الطبيعية ، فان لم يقم به الرجال من تلقاء نفسه قامت به المرأة نفسها متى استكملت أدواتها للعمل لذاتها وقد ظهرت بوادر تحفزها ، فمن مصلحتنا إن لم نقل من واجبنا ، إعانتها عليه بما أوتيناه

من السبق فى الوسائل، ويكون لنا عندها يد تذكرها ، وإلا تأدت إليه بغير مساعدتنا بعد أدوار تمر فى تنازع يقع ضرره على الجنسين معاً، ثم لايكون إلا ما هو كائن رضينا به أو لم نرض

كمال المرأة

لكل حى فى هذا الوجود كمال يتأدى إليه مسوقاً بدوافع مناسبة له ، غرزها الخالق الحكيم فى طبيعته ، ولكن قضت السنة الآلهية أن لا يبلغ كائن كماله طفرة فلا بد من مروره على أدوار شتى تتعاوره فيه عوامل لاتدخل تحت حصر . وللكائنات الانسانية من هذا التطور تاريخ حافل بالشؤن والتقلبات تكفلت ببيانها علوم التاريخ والاجتماع والنفس وسواها لاتزال فى دور نشوئها وقد مضى عليها ألوف من السنين . ولا غرو فان استكشاف السنن الاجتماعية التى تسوق الآحاد والجماعات العاقلة الى غاياتها هى من التركب والتعقد بحيث يتعذر على المدارك تتبع آثار كل

واحدة منها كما تتتبع آثار السنن العاملة فى الكائنات المجردة عن العقل ، لأن هذه الكائنات الأخيرة تنفعل لتلك السنن إنفعال الآلة لليد المحركة لها ، ولكن الكائنات المفكرة تقوم عند كل أثر يقع عليها بحركة مقابلة تقتضيها ماركب فيها من القوى التابعة هى أيضاً لنواميس خاصة بها ، وهذا التفاعل بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية للعقل كان فى كل زمان موضوع علوم شتى سميت بأسماء مختلفة لاتزال كما قلنا فى دور نشوئها وإن مضت عليها عشرات الأجيال. ولكنها هدتنا فى الجملة إلى حقائق عامة لايمكن نكرانها ليس من غرضنا سردها فى هذه العجالة وإنما ننبه منها إلى مايخص مبحثنا هذا وهى الحقيقة : (ان لكل من الرجل والمرأة غايتين من الكمال ينساقان اليهما تتخالفان فى طريقهما وتتكاملان فى نهايتيهما)

هذا ماقررته المعارف الاجتماعية والنفسية وتكفلت بالتدليل عليه مقررات الفروع المختلفة بالعلم من تشريحية وفيزيولوجية واقتصادية وغيرها ولكن المتكلمين من الكاتبين

والقصصيين والمتطوعين للدفاع عن حرية المرآة يضربون صفحاً عن هـذه المقررات التى لم يكلفوا أنفسهم دراستها فيخبطون فى هذا المبحث خبطاً مشتقين كل مايكتبونه من نظرات سطحية ، وأراء شخصية ، فاذا تخالفوا فلا يحكمون المقررات العلمية التى أفنى العلماء أعمارهم فى تدعيمها ولكنهم يعمدون الى التناضل بالشتائم حتى اذا تعبوا ألقوا أقلامهم تهيئاً لدور آخر من التخاصم

ولقد تتبعنا الفريقين فى كل أدوار مناقشاتهم فتبينا لهم مذهبين متناقضين : ففريق يرى أن المرأة دون الرجل إدراكا وقوة فيجب أن تخضع له خضوع الضعيف للقوى وعليه أن يتولاها كما يتولى إبنته فيحجبها عن الأعين ويعطيها نوع التهذيب الذى يتولاه

وفريق يرى أن المرأة والرجل سواء فى الادراك والقوة (الا ماأوجبه الأسر عليها قروناً طويلة) فلا يجوز أن تخضع له ، ولا أن يتولى هو أمرها فيصرفها على مايهوى ، ولا أن تحتجب عن الرجال ، ولا أن تقصر نفسها على الأمور البيتية بل أن تعمل فى كل مجال من يعمل فيه الرجل

هذان هما الفريقان اللذان يختصمان فى أمر المرأة اليوم وكلاهما على غير السبيل العلمى ، فهما يعتركان بمعزل عن مضطرب العوامل الاجتماعية وليس لكتابتهما من أثر غير ما ينتجه من حركة فكرية بعيدة عن مواطن العلل الحقيقية

ولكن العلم الاجتماعى الذى أدرك ماهيتى كمال الرجل وكمال المرأة وعرف العوامل التى تدفع كلا منهما إليه فى طريقه الخاص به ثم تلاقيهما فى النهاية ، لايقوم على شىء من الأصول التى تقوم عليها كتابات هؤلاء المتجادلين . فهو لايقرر أن المرأة يجب أن تخضع للرجل لحجة أنه أقوى منها مداركا وجثمانا ولا أنها تجب أن تنطلق من أساره بدعوى أنها تساويه فيهما فهو لايطرح مسئلتى خضوعها وتحررها على بساط البحث لأنه يرى نفسه حيال كائنين خلقا ليتكاملا لاليتغالبا وجدا ليتضامنا لا ليتنافسا

نعم أن الرجل استخدم قواه العضلية لأسر المرأة وأخضاعها لسلطانه ولكن ليس طريق تحريرها إعلان استقلالها عنه وادعاء مساواتها له فى كل مواهبها ، لأنهما لم يخلقا ليستقل أحدهما عن الآخر بل ليعيشا معاً ، ولأن مواهبها

تتخالف بتخالف وظيفتها فلا سبيل للمفاضلة بينهما

فهذا الضرب من الخبط لاتكون نتيجته الا زيادة حالتها سواء . فانهم ان حصلوا لها الاستقلال قضوا عليها اما بالترجل أو بالجرى مع أهوائها ، وفى كلتا الحالتين إسقاط لها إلى الحضيض وقضاء عليها بالدون من العيش . وان حققوا مسئلة مساواتها للرجل عرفا (وهى ليست كذلك فى الواقع من الوجهة التى يرمون اليها) قضوا عليها بالعبودية له ، لانها لا تساويه من الوجهة العضلية وإن كانت تفوقه من وجهة أخرى فتخضع له مضطرة تبعاً للقاعدة الحيوانية التى لاتزال سائدة بين البشر وهى أن الحق للقوة . وفى العالم الشرقى والغربى مجال واسع لتحقيق هذه المقررات . فالنساء المترجلات والمستقلات لايعشن الا فى الحرمان ، اللهم الا شواذ يعددن عداً وهن على شذوذهن لايتخطين الدرجة الوسطى الا إذا كانت لهن ثروة موروثة

فالعلم يقرر أن للمرأة درجة من الكمال تساوى درجة كمال الرجل فى الرتبة ولكنها لاتحصلها بالجرى على سنته بل على السنة المقررة لها . وهى لم تخلق دونه مواهب وقوى

ولكن هذه المواهب والقوى ليست من نوع قواه ومواهبه فلا يصح أن تقارن بها . وانها لم تخلق لتخضع له بل لتعيش معه مكملا أحدهما نقص الآخر ، وانها لم تجعل لتستقل عنه ، ولكن ليس فى تعلقها به معنى التبعية بل معنى الشركة الطبيعية وأنها لا تصل الى مكانتها هذه من طريق الاباحات التى يطلبها لها الذين يدعون تحريرها ، بل من طريق السنن المقررة لطبيعتها . وان المرأة الغربية التى يريد أولئك المدافعون عنها أن يجعلوها نموذجا لها ليست بالمثل الاعلى الذى يجب أن تعمل المرأة للوصول اليه ، بل هى فى حالة تنافى ذلك المثل الاعلى من أوجه كثيرة وتحول دون بلوغه

كل هذه مباحث جليلة ، المرأة المصرية فى أشد الحاجة اليها وهى فى دور نهضتها الراهنة ، ليتسنى لها أن تسعى الى كمالها بقدم ثابتة ونفس مطمئنة ، واضعة نصب عينها مثلها الأعلى الذى ليس وراءه مرمى ، ضاربة عرض الحائط بكل كلام يرمى الى صرفها عنه لما ليس منه من المرامى الاباحية الموبقة

الشاعر الناثر



خليل بك مطران شاعر القطرين

٦

شاعر القطرين
خليل بك مطران

المختار من نثره

ماهى الارادة ؟

شأن التصور فيها

لو كانت العناصر التى تتألف منها حياتنا النفسية بسيطة أى غير معددة الادغام والتركيب والمشاركات لسهل على المرء أن يتبين الحوائل التى تحول دون سلطانه على نفسه فيتقيها أو الوسائل التى تبلغه إلى التمالك فيتوسل بها غير أن تلك العناصر ترجع بوجه عام الى ثلاثة : تصوراتنا ، احساساتنا ، أفعالنا

(١)

من التصورات ما هو اقبالى أى منجذب نحو المحور ومنها ماهو إدبارى أى مندفع عن المحور

غير أن كثيراً من التصورات يطرقنا من الخارج فينزل من ذاكرتنا منزل الغريب من الخان وقد تجتمع فى ذلك الخان الاضداد مما يجىء عن المطالعات أو المحادثات أو الامانى والاوهام

من تلك الاضداد يغلب أن تنتحل المعاذير لكسلنا مستمسكين بأقوال ضارة أو كلم مشتبهة بالحكم معزوة الى بعض ذوى الأسماء من الأدباء أو العلماء

أمثال هذه التصورات لا سلطان لها علينا بل لنا عليها كل السلطان . على أن معظمها ألفاظ لا غير شيء . وماذا تراها ، مع كونها ليست إلا ألفاظاً ، فاعلات بتواكلنا وشهواتنا ، أيسطو بآنية الخزف على آنية الحديد ؟ من المحقق أن العقل على ما به من القدرة التى لا تجحد لو انفرد فى قتال الأهواء لما أجدى فتيلا . أليس السكير يعلم حق العلم بنتائج إدمانه ومع ذلك لا يتوب : لان التصور وحده لا يكفى رادعاً . إلا أن يكون السفيه دهراً تحت تهديد المستقبل فاذا عضه الشقاء بنواجذه قال « ايتنى علمت » على انه كان يعلم ولكنه لم يتعظ ، هتان واقعتان لهما أشباه لا تحصى من الوقائع المألوفة تدل كلها على أن التصور اذا لم يمدد بالشعور لم يستفز همتنا ذلك الاستفزاز القوى الذى لا تمد الارادة الا به وتوجد تحت هذه الطبقة من التصورات الاجنبية طبقة أخرى من التصورات السطحية لا تنفذ الى

الصميم ولكنها قد تلابس الاحساس فتستعير منه بأساً وأيداً [١] مثال ذلك : شاب حاق به السأم وملكته الروية فأقام أياما لا ينشط لواجب عليه ، ثم اتفق أن جاءه البريد صباحا منبئاً بنجاح أحد أقرانه ، فماهو الا أن ألق الالوكة [٢] من يده حتى سار به الشوق الى استئناف عمله ، سورة لم يشبهها فيه قبلا تقدير التبعات [٣] وان ساءت عليه مآلا ومن هذا القبيل حادث جرى لمؤلف هذا الكتاب قال « كنت فى بعض خطراتى للرياضة مستغرقاً فى التفكير فشارفت خطراً فى مذلة قدم من جبل وعر فلم أجزع وتمهلت فى انحدارى مستعيناً بمخصرة [٤] فى أدناها زج [٥] حديد حتى انتهيت إلى مأمن فهنالك تولانى الذعر وسال من جسمى بارد العرق لشدة القرق [٦] فالشاهد هو أنه فى لحظة أو دونها قد تحول فى نفسى منظر الخطر الى خوف من الخطر

يضاف الى هذا النوع من التصورات نوع آخر أبلغ

---

(١) قوة (٢) الرسالة (٣) المسئوليات (٤) عصا
(٥) كمد (٦) الخوف

شأنا وهو الذى تصادف فيه التصورات الغريبة انفعالات خاصة من النفس فان السانحة من هذا الصنف اذا صادفت قلباً تائقاً إليها اجتذبت إليها ، بفعل الاشتفاف الداخلى الذى سنراه فيما بعد ، كل احساس صالح لتلقيحها ، فاتخذت لها منه غذاء وحولا وأولته منها جلاء وصفاء وسيرته بعد الحيرة فى وجهة يوليها شطره ، فما التصور فى مثل هذه الحال الا كالمغناطيس يجمع آلاف التيارات المنبثقة من قضيب الحديد اللين راداً تنافرها الى التئام ، مرسلا اياها نحو واحد فيضاعف بذلك قوتها الى مئة من أمثالها ، وكذلك التصور حين يأتلف بالاحساس فى حد ما وصفنا فربما نجمت عنه الكلمة الموفقة ألقاها خطيب سياسى محبوب فى قومه فكفت لتقييد أوابد الاغراض بعد الفوضى والشتات وانجحت فى تسيير الجماهير بعد اختلافهم نحو غاية واحدة

تلك قوة الخواطر اذا حالفتها نزعات الحس فاذا انفردت عنها لم يكن لها شىء من ذلك الأيد ، يدرك حقيقة هذه القاعدة من ساوره الخوف ذات ليلة ، لغير ما سبب ، فلزم مضجعه كأنه به لصيق ، وخفق فؤاده ، واضطرب صدغاه

وتعذر عليه من صفاء ذهنه ، أن يسكن روعه ، بيد أنه إذا كان الخوف من الانفعالات الكبرى فانظر ما أضعف فعل التصور منفرداً فى النزعات الصغرى ، أ كل تقى ورع من أهل التجارات والزراعات الذين يتفق لهم مع ذلك أن يتسامحوا أحيانا فى بعض التطفيف بالكيل أو مماحكة الفاعل الكداح البائس فى شىء من أجره الى ما هو أجسم وأظلم ، أهؤلاء الاتقياء الورعون الذين تجنبوا الدنيا وتحرروا لله قولا وفعلا هم فى الايمان سواء ؟ أو ليس بيناً أن الذى يحس منهم بالعقيدة هو غير الذى يقف منها عند حد التصور ؟ وهل يقال ، فى تقدير آخر ، أن الاشترا كي الذى يجوس خلال الجادات فى باريس مستمتعاً بكل شىء ، غير ضان على نفسه بنفقة يستطيعها وأن تفه غرضه منها وكان وراء حاجته ، شبيه بتولستوى ذلك المثرى الاصيل [1] العبقرى العليم الذى تخلى لعقيدته عن محتده [2] الفخم وجاهه الواسع وقصوره الباذخات ليعيش عيشة فلاح روسى من عامة الفلاحين :

(١) الشريف النسب (٢) الاسرة التى جاء منها

لاحاجة الى التكثير من الامثال وفى اختبار كل مناما يتجدد كل يوم أو يشهد كل ساعة بان التصور على حدته ليس بذى حول فلو خلت له ضمائرنا لجاز أن يصبح فيها العامل القوى غير انه لايكون هناك الا على نزاع بينه وبين الأهواء وحيث لم يستعر بأساً وايداً من الاحساس لم يفلح فى مكافحتها

(٢)

لئن ساءنا ان التصور بلا حول كما قدمنا فما ذلك الا لعدم انتفاعنا، فى جانب تنشئه الارادة بما لنا عليه من مطلق السلطان مثال هذا السلطان أن الرجل اذا كان متبحراً فى بحث أو تأمل، وصدعه من الخارج صوت فقطع عليه سلسلة فكره، ونقله من شأنه الى شأن آخر لارتباط له به،. استعان الرجل على طرد هذا التصور المتدخل باشارة هو معتادها كأن يضع يده على جبهته، أو بقراءة كتاب، أو بغمغمة كلمات مما كان يبحث فيه وبذلك يتسنى له وصل السلسلة من حيث انفصلت وتمكين التصور الذى هو فى صدده من حيث كان قد أخفق أو اضطرب

من هنـا يتبين أن الذاكرة هى المعوان الأكبر على إحراز هذا الظفر فهى تحفظ كل ما نواجهه وتهيء له مكاناً من عطفنا أو تصر على ادخاره . أما سائر ما يلقى فيها من البذار فتدعه يجف فى حيز المهملات الى أن يتلاشى وربما تلاشى ذلك الحيز نفسه

الخلاصة ان السلطان الذي لنا على تصورنا انما هو متمم بسلطاننا على الأعصاب التى ترتبط بها جوارحنا الحساسة فهو يمنح كلا من الناس حيلة لابرام ما ينتقد مما يشتغل به ذهنه وإنما قدرة المرأ على فكره تابعة لقدرته على أعصابه غير أن كل ما لنا من الصولة على تصورنا لا يخولنا صولة جديرة بالذكر على توكلنا واستسلامنا الشهوى فلننظر ما تمدنا به الانفعالات من الوسائل للتوصل الى السيطرة على أنفسنا أو بلفظة واحدة إلى التمالك

الارادة

وكيف تصنع رجالا

عيب متأصل فينا يجب أن نجاهده : ضعف الارادة وما يبدو من مظاهره المختلفة فى طالب العلم والعامل بعلمه

اذا تبينا ، عن ثقة ، مم يتأتى فشلنا فى أعمالنا كلها أو جلها، وجدنا السبب الاكبر بل الأوحد فى ذلك هو ضعف إرادتنا ، أو نفارنا من الجهد ولا سيما الجهد المطرد

سبب تتنوع أسماؤه فيقال تواكل ، أوروبة ، أو نزق ، على كون المسمى واحداً هو ذلك الكسل المتغلب على الطبيعة الانسانيـة النازل منها بقوته القاهرة منزلة الثقل من المادة

ألد خصم فى الانسان الارادة الثابتة هو بالطبع ما كان قوى الفعل دائبه . أما الشهوات فليست ذلك الخصم الألد لأنها طارئة أسرع ماتجىء أسرع ماتزول الا فى أحوال نادرة كل الندور تقرت فيها من الجنون . فلا يصح زعم من زعم ان الشهوات هى العلل التى تحول دون المواظبة وخصوصاً مع مايتسنى للمرء فى أثنائها أن يأتى به من جلائل الأعمال .

أما العـدو الغلاب للارادة فهو تلك الحالة النفسية المتمكنة التى تدعى بالروبة أو التواكل أو الكسل كما قدمنا . أما ترى أن الرجل لاينشط لأمر الا أن تلح عليـه الضرورة ، وإن أمما كالجيل الأحمر آثرت الانقراض على النهوض لمقاومته بالمجهود المتابع المنظم ، وان الطفل تشق عليه مزاولة العمل المطرد ، وان الصناع يقضون أعمارهم فاعلين فعلا واحـداً لايعنون باتقانه حتى يجيء خيراً من سوالفه الغابرة أو من أمثاله الحاضرة وهو ماأدهش الفيلسوف سبنسر اذ آنس فى الأشياء التى يتداولها كل يوم تشا كلا مابه من أثر دال على أن الصانع حرف فطنته فى تلك الأشياء ليجعلها أخلق بما خلقت له فاستخلص من ذلك قوله « كأن الناس قد اتفقوا على عبور الحياة مقلين من كد أذهانهم نهاية الاقلال » . تلك أمثلة على جلائها لا نتبين حقائقها بأحسن مما تعيده على بالنا ذكرى عهدنا بطلب العلم : فما كان أقل الجادين من رفقائنا فى تلك الأيام وما كان أكلفنا جميعاً بالانعانى فى التهيؤ للامتحان الا أيسر مايعانى فنعقد النجاح بالاستظهار دون سواه من قوى العقل طمعاً فى البلوغ الى مأرب فذا ـ أخسس به من

مأرب ـ هو خدمة الحكومة أوالقيام بأى عمل من هـذا النوع يجال الذهن فيـه كتطريس اللاحق على أثر السابق لا إجالة الاستنباط والتوليد

إليك مثلا آخر : إذا انقضى زمن الطلب وصار الفتى محامياً أو قاضـياً أوطبيباً أو مدرسا افتتح حرفتـه بالنشاط والتفطن و لاسـتصلاح وتمهدها بكل أولئك زمناً الى أن ترتسم خطط معلومـة لديه وتلين أدوات المزاولة بين يديه. غير أنه بالنظر الى كونه لم يردف العمل الذى يرتزق منه بعمل عقلى آخر يجعله فى الخلوة ، خـير سلوة ، ويسـتعين به على حفظ نشاطه ، وتقوية ، ارادته ، لايلبث حين يستوفى البراعة فى حرفته ان تفتر همته من جهة العمل العقلى الآخر فيكف عن التحصيل ويمل من اقتداح الفكر الى أن يفنى في العام بعـد العام وسائل اختراعه وينفد قوى ابتكاره فينحدر فى وهدة التواكل وقدصدىء ذكاؤه لطول اعتماده وانتهكت رويته وتثلمت حدود قياسه : ذلك بأن كل من لا يتخذ لنفسه شغلا عقلياً يزاوله بجانب مرتزقه لم تنج عزيمته من التدهور الى مثل هذه النهاية

فلننظر الا ن فى الخلة السيئة التى يجدر بناشد العلم والعامل بعلمه ان يكافحاها فان هذا الكتاب انما هو موجه المقاصد الى هذين الفريقين بالأخص

أخطر مظهر من مظاهر الكسل فى طالب العلم هو ذلك الخور أو ذلك السأم النفسى الذى تتضح آثاره فى كل حركة من حركات اليافع واليك وصفه : ينام ساعات طويلة وراء حاجتـه ، يستيقظ وانياً متثائباً مخدر الأعصاب ، يتنظف ويصلح ظاهره على مهل ، يرتدى ثيابه فى زمن مديد ، يشعر بأنه غير متهىء لفعل الا أن يفعله مكرهاً مكتئباً متبالداً ؛ يبدو النعاس على وجهه وكأن فى ملامحه حيلة تحت الفتور الظاهر عليها ، يكاد لا ينشط لشىء واذا نشط لم يعلم لأى شىء ، إذا أضاع صباح يومه على هـذا النحو عاد فتغدى فتحاذف إلى مشرب قهوة يقرأ بعض الصحف الى آخر حرف من الاعلانات لما فى ذلك من التسلية بغير كلفة عليه فاذا كان الأصيل أحس دبيب الهمة فيه فطفق يبدد تلك الهمة بالمحادثات الفارغة والمناقشات العقيمة ، وكثيراً ما يبعثه الحسد الكامن فى نظر كل مكسال على ثلب الغائبين

والطعن فى كبراء القوم من حكام أو علماء أو أدباء أو مدرسين حتى اذا جاء المساء أوى إلى مضجعه ، أنكد قليلا مما كان بالأمس ، بسبب أن تلك الروبة التى تقعد به عن الجد تقعد به فى غالب أمره عن المسرات وما من سبيل إلى الهناء بلا عناء ولا إلى السعود بلا مجهود . على ان من المسرات ماتدعو اليه الفطنة وتبعث عليه الهمة كمطالعة الاسفار وتفقد المتاحف وترويح القلب فى الخلاء الطلق فهذه هى المسرات الصحيحة التى تتجدد دون سـواها وتستماد ماشاءت أمانى النفس . غير أن المـكسال يرى فرصها سانحة ممكنة فلا يعد إليها يداً فتنفلت عازبة عنه ويلبث من حياته فى فراغ موحش

يجدر بنا التنبيه فى هذا المقام على ان الكسل المتأصل فى الطبيعة لاينافى حدوث النشاط هبة هبة : يشاهد أن الامم غير المتحضرة لاتعزعليها النهضات العنيفة أحيانا وإنما يشق عليها العمل المنظم المطرد الذي يستنزف فى نهاية أمره من القوى أضعاف ماتستنزفه تلك الوثبات الفجائية . فهو كالنفقة يستنفد بقليلها على الاستمرار مالا يستنفد بكثيرها فى بضع مرار ، ويشاهد أن الرجل المـكسال قد يقدم على

الحرب ويبلى فيها بلاء حسناً فتهون عليه شدائدها التى يعانيها بين آن وآن عن مزاولة أيما عمل ممتد الامد متصل الجهد

كم من أمة غابرة ابتنت ملكا كبيراً فى الدنيا لكنهم لم يضطلعوا بحفظه لانهم لم يكونوا من ذوى المثابرة التى يتقن معها تدبير الاقاليم وتؤسس المدارس وتمهيد الطرق وتشييد المصانع فأضاعوا بهذا التقاعس ذلك الملك الكبير . وكمثلهم مثل الطلبة الكسالى : فقد يأتون بالمعجز حينما شارفوا موعد الامتحان وينجحون على قصر المدة لتأهبهم لكنه يشق عليهم أن يتهيأوا له منذ بدء السنة ، معتدلين فى كدهم، مثابرين اليوم بعد اليوم والشهر بعد الشهر

فاذا كانت الهمة الحقيقية المثمرة إنما قوامها الجهد المعتدل المتتابع صح بلا شبهة ان ما خرج عن هذا الحد خليق بأن يسمى « عملا كسلياً » ـ أما العمل المطرد فمن مستلزماته بالبداهة اطراد الوجهة وعليه فما تكون قوة الارادة بتعدد المجهودات بل بتسيير جميع قوى العقل نحو غاية واحدة

إليك نموذجاً من صنوف الكسالى وهم كثير : هذا

فتى زميع مفراح كداد قلما يلقى بلا عمل : يقرأ في اليوم الواحد بحثاً فى طبقات الارض وفصلا من ناقد جهبذ فى شاعر كبير ، ومقالات عدة فى صحف شتى ، يهيء تخطيطاً لمحاضرة فى مطلب ذى شأن ، يترجم بضع صفحات من لغة أجنبية ، لايهدأ هدأة فى نهاره . فيكبر اخوانه منه ذلك الكدح وتلك الوفرة فى أنواع الشغل . غير أنه مع كل ذلك لايجدر إلا بنعت الكسلان عند علماء النفس لأن المراوحة بين الأشغال على هذه الصفة دليل فى رأيهم على ذهن حاضر بالفطرة ، له نباهة لاتنكر ، ولكنه لم يصل بعد إلى رتبة الذهن « الحاضر بالمشيئة » . كما ان تلك الشدة فى الكدح دليل فى رأيهم على ضعف وأى ضعف فى الارادة

الكسول من هذا الصنف غير قليل وأخلق به أن يسمى بالمتوزع اذ لاجرم ان التنقل العقلى بين موضوع وآخر فيه مفترج للنفس ولكنه لايزيد شيئاً عن المفترج وقد دعا نيكول تلك الالباب بعقول الذباب وشبهها فلون تشبيهاً بديعاً بالشمع المتقد فى ملعب اهوية

اذا تبينا ما التوزع فاكبر سيئاته أن السانحة لاتمهل حتى

تكتمل خلافاً لما تقتضيه القاعدة المطلقة التى عليها مدار كل عمل عقلى : من كون التصورات والاحساسات التى لا ننزلها منا إلا منازل الغرباء من الفنادق تظل أجنبيات عنا ولا تلبث أن تصبح نسياً منسياً ، فى حين أن العمل العقلى بالمعنى الصحيح يوجب توجيه المجهودات على اختلافها فى متجه واحد كما سنرى . على أن كراهة الاكثرين لهذا العمل المسير نحو غاية معينة أقل من كراهتهم للاجتهاد أى للجهد الذاتى المقصود به اتيان ماليس بمسبوق: ولا غرو فاية مشاكلة بين استظهار ماصنعه الاخرون وبين خلق الشىء من حيث الاختراع وتهيئة الاصول الانشائية كتابية كانت أم فنية من صنف آخر . أما السر فى تصعب الابداء فهو استلزامه التنسيق ومامن انشاء أى ابداء يفترق فيه الجهد الذاتى عن المنساق الى الغاية الواحدة ومن ثم يتبين السبب الذى من أجله يعاف السواد الاعظم من الطلبة هذا الضرب من العمل مع أن مال الامور اليهم فى الغد حلا وعقداً

انظر الى طلبة الفلسفة مثلا : تجدهم جادين ولا سياحين يتأهبون للامتحان النهائى ولا تأخذ عليهم أهمالا أو تباطؤاً

عن المواعيد ، غير أنهم يجتنبون ن الروية ، فهم ولا نحاشى
إلا النابغين منهم وليسوا بكثير ، كسالى العقول وكسلهم
هذا عبارة عن نزوعهم الى التفكير بالألفاظ دون المعانى ،
وكلفهم بالاستظهار دون الاستبصار ، فيؤثرون تحميل
ذاكرتهم ما لا تضطلع به من الوقر على أن يأتوا بأدنى جهد
من عندياتهم ، من ذلك انهم إذا تعلموا علم النفس لم يرجعوا
فى التطبيق الى ما عهدوه بأنفسهم منذ نعومة أظفارهم ،
وفيه الكفاية للاستشهاد عن تدبر ، بل يرجعون الى
الشواهد المحفوظة عن ظهر القلب من الكتب وشتان
بين الحالتين . قس على هذا وفرة الاستظهار وقلة الاستبصار
فى سائر العلوم كالطب والحقوق والمواليد الثلاثة والتاريخ
بل ربما وجد المدقق آثار هذه الآفة ، وان لم تكن بينة
فى مصنفات غير واحد من اللوذعيين : إذ يلمح فيها غلبة
المحفوظ على المبدوء . وأنذر بفائدة الاكثار من المطالعات
وشحن الذهن بالمنقولات على حد ما قاله الحكيم القديم
« أخاف من صاحب الكتاب الواحد » ، وأغزر بفوائد

الاقلال من التصفح مع حسن الاختيار ، واستبقاء المكان الكافى من الذهن خالياً للابتكار ، وأعداد معدات الشيء الذى يجدر به أن يسمى عملاً

ومما يدعو إلى الأسف ان النظام الراهن للتعليم معوان كبير على امتداد ذلك الكسل العقلى المتأصل وازدياد أخطاره كأن برنامج الدراسة الثانوية انما خلقت لجعل التلامذة من طائفة المتوزعين : اذ تضطرهم بكثرة المواد وتباينها على المرور بها عبراً وعدم التعمق أو التثبت أو التبحر فى واحدة منها . تريد أيها التلميذ أن تقف قليلاً لتفهم مطاباً مما بين يديك أو لتستوضح الشعور الدى أحدثته فيك إحدى المطالعات ؟ أبى النظام أن تمهل . فتقدم ذاهباً مذاهب اليهودى التائه : بين الحسابة والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وتاريخ الأمم وجغرافية الأقسام الخمسة من الدنيا ومدارسة لغتين متداولتين وأشتات من أدبيات الألسنة الغابرة والحاضرة والمنطق والأخلاق وما وراء الهيولى حتى تنتهى إلى التوسط أو مادونه بوقوفك على الظواهر من كل شيء واقتصار حكمك على تلك الظواهر

فتى انتقلت من هذا الشوط الحثيث إلى الدراسة العليا فلست بمزداد الا اندفاعاً وتشتتاً فى الشوط الآخر . حتى إذا أفضيت الى ميدان الحياة فهنالك تمضى أسباب العيشة العصرية بفكرك الى أبعد غاية من التوزع . وناهيك بسهولة الارتحال وكثرة الانتقال ، براً وبحراً ، من علل اشتات الاذهان وأسباب للشطط والخطل والتفريط . تلك عيشة مضطربة فارغة لا يتسع الوقت معها للمطالعة بجدّ وأية قيمة للكتاب الحكيم فى جانب ما تشغل القلب به صحف الأخبار من النبيات الكاذبة والأنباء العاجلة التى تقسم الذهن بين ما جل أو قل من الحوادث الخافقين فى خمسة أجزائها

ذلك ما تمدنا له البيئة فكيف نقاومه حيث لا يوجد فى التأديب ما يهيئنا لتلك المقاومة . أليس من بواعث الغم أن الصنيع الأمثل وهو تربية المشيئة لم يشرع فيه إلى الآن مباشرة ولا عن تدبر واكتناه بل نهاية ما يصنع فى هذا السبيل انهم ينشئون الارادة على قدر ما يعتقدونه ضرورياً لشحن الرأس بالمنقولات . غلطت بقولى ينشئون الارادة والصواب أنهم يهيجونها ليصلوا بها إلى ذلك الأرب . وفى

هذه الحالة يكون الفتى مادام ناشداً للعلم من جهة بين خوف القصاص أو حذر السخرية من الأقران ومن جهة أخرى بين رجاء المكافأة أو توخى الثناء فاذا رقى الى المدارسة العليا بطل هذان العاملان ولم يبق إلا الحصول على الأجازة وهى سهلة المنال لا يقصر عنها باع الكسل

ذلك كل ما يعمل لتنشئة الارادة مع أن ذلك المطلب بعيد الشقة ليس بالميسور ولا بضئيل النتيجة . أليست المثابرة هى التى توجد الرجل بتمامه ، أو ليست هى التى كونت أسنى هبات الزكاء وجماتها منجبة ، أو ليست هى التى كانت الوسيلة لحدوث أجل العظائم وأجمل المحاسن . من العجب أن هذا الرأى إجماع ، وانك لا تجد غير شاك من سعة الشقة بين وفرة ما يختزن فى الدماغ وقلة ما تغذى به المتيئة . وكل صائر مصيراً يلتمس منه سد هذه الثلمة التى تركها لنا المتقدمون على علاتها إذ أن الطالب بعد رقيه إلى الدراسة العليا يصبح حيران ذاهلاً غير عارف كيف يعمل ولا كيف يريد

اجهد جهدك

أى اجعل لك ضالة فى الحياة وأنشدها

نحس من أنفسنا وان لم تشعرنا بذلك برامج التعليم أن قيمة الواحدمناقيمة مابه من العزيمة ، وأنه لا يرجى أمر ذوبال من امرىء ضعيف الشيمة . فيهون علينا لأجل التباهى ان نبالغ فى مقدار المجهود الذى نبذله كل يوم لما فيه من الدليل على قوة مشيئتنا . ولئن كذبنا بدعوانا تلك فهو أشيع شىء بين الطلبة . وقد تذهب بنا الغلواء إلى الافتراء على أنفسنا فى هذا المعنى انخداعاً منا بمضائنا واغتراراً بما نستطيع الاتيان به من العمل

ومهما يكن من ذلك التوهم أو الايهام فان هما الا إقرار من طرف خفى بان الرجل قدره قدر همته

من استراب فى مشيئتنا فقد أثخن الطعنة فى كرامتنا . أليس الذى يتهمنا فى قدرتنا على العمل يرمينا بالضعف والجبن ، أو ليس الذى ينكر علينا مثابرتنا يلزمنا بين جمهور الأدعياء

الغامضة بهم رحاب الحرف الحرة مكاناً هو الوسط أو دونه لا يرجى لنا النهوض منه أو التعالى عنه

كل ذلك ثناء على العمل وفيه دلالة لاريب فيها على رغبة الطلبة فى النشاط والكد : وهى تلك الرغبة التى نبين لهم خلال هذه الفصول كيف يستطيعون تحويلها إلى عزيمة ثم الى مواظبة ثم الى عادة ثابتة وطيدة

يراد بالعمل العقلى أحد أمرين : أما إقبال المرء على الطبيعة تدبراً واستقراء وبحثاً مع عكوفه من جهة أخرى على مدارسة كل صنيع أتاه الآخرون من جنس ما انصرف اليه وتخصص له ، وأما الانتاج الذاتى ومن مرادفاته الانشاء أو الابتداع أو الابتكار أو الاستنباط . فاما الانتاج الذاتى فالاطلاع أول مقتضياته وجميع المجهودات الذهنية من مشتملاته وأداته إنما هى التأمل والاستجماع كما أن أداة التفحص والمدارسة لما فى الخارج إنما هى التفطن أو التنبه ففى كلا الأمرين المطلوب هو حضور الذهن ولا عمل فى غيبة الذهن . على أن التنبه ليس . كما يغلب على وهم العامة بالحالة الثابتة المتصلة إلى أمد معلوم كما تكون القوس الموتورة

بل هو مجموع مجهودات جلت أو دقت ، تتكرر وتتوالى مختلفات السرعة . فاذا كان الذهن مروضاً متمرساً جرى تتابع المجهودات مجرى متلازماً يوهم اتصال بعضها ببعض مستمراً بضع ساعات فى كل يوم

فالغاية المرومة أو الضالة المنشودة هى إذن الحصول على مجهودات متصله قوية من جانب الروية . ولا مشاحة فى أن أكبر مغتنم يتسنى لنا اغتنامه من سلطاننا على أنفسنا هو إقدامنا فى كل يوم على استئناف مابذلناه من المجهودات الشاقة : ذلك لأن الشبيبة مطية التهور ومبعث الغرور فهى تغلب الميول الحيوانية الشهوية فى الفتيان على ما يبدو لهم من ظاهر الشظف فى حياة أولى الألباب

بيد أن المجهودات العظيمة المثابر عليها قد تكون فوضى صادرة عن التوزع فلا تفى بمرام فاذا التمس تمام فائدتها تعين أن توجه نحو غاية واحدة وهى التى سميناها بالضالة المنشودة ليس بكاف سنوح التصور على بالنا أو حدوث الأثر فى نفسنا ليجتنى منهما أيما جنى بل هما ينزلان منا منزل الضيفين فاذا نويا التوطن : فاشتراطه الاقامة زمناً معلوماً ، ولعنف

المجاورة ، وحسن المعاشرة ، ليتمكن مدرّجين ويكون لهما ألاف وتتبين مزاياهما الخاصة

أما ترى كيف تخلق الآيات الفنية ؟

تجول الفكرة بادىء بدء فى رأس الرجل العبقرى وقد تكون خطرة موقفة من خطرات الصبي ، فتلبث فى أوائلها مستقرة خفية حتى تصادفها قراءة جدّت ، أو حادثة فى الحياة حدثت ، أو عبارة لم يفطن كاتبها لما تحتها فالقى بها فى عرض كلامه رمية من غير رام ، فتنبث منهـا فى تلك الفكرة المستكنة روح تشعرها بمـا لها من القيمة وبما قد يكون لها من الشأن ، فتشرع من ذلك الحين تتغذى بكل ماعرّ بها من محتويات الأسفار أو فحويات المحادثات ، آخذة منها كل العناصر التى تستصلحها لنمائها وتقويتها . الفكرة التي تولدت منها رواية فوست أقامت ثلاثين سنة فى قلب الشاعر جوتى حتى أكملها العرفان واللوذعية والخبرة . وكل تصور ذوبال جدير بأن يحتفظ به فى الضمير أمداً ، وأن يعاد إليـه بالروية كرة بعد كرة ، فما يعتم أن يصبح محوراً حياً يجتذب إليه بمغناطيسه الخفى المعروف بالمشاركة الفكرية

أو أبد المعاني الأبية من عقلية وقلبية ، فيتلهمها ويمثلها نامياً بها نمواً لايتم إلا بفضل التأمل مع الجلد والتمهل . تلك الفكر المحورية إنما هى أشباه لتلك البلورات العجيبة التى يغمس المختبر السكيماوى واحدة منها فى السائل الهادىء فتستنزل بانتظام وتأن آلافاً من دقائق ذلك السائل كأنهن صغار الدر واليواقيت

فتمشياً على هذه القاعدة يكون كل اختراع إحدى نتائج الارادة ، ولم يستكشف نيوتن سنة الجاذبية العامة إلا بعد أن تفكر فيها بلا انقطاع ، وكان داروين لايشتغل بمطالعة ولا ينصرف إلى تأمل إلا فى المعنى الذى هو منقطع له ، وهذا مصداق قول الذين عرفوا النبوغ « بالصبر الجميل فى الأمد الطويل »

بدعتان

مخالفتان لتنشئة الارادة

١

لا شيء أضعف حجة من محض الانكار . فمن توخى الاقناع فالاقناع ليس فى الانتقاد بل فى الايجاد . ولما كنا معتدين بأفضلية المذهب الذى وضعنا له هـذا المصنف لاتخاذنا مادته من أثبت وأنصع الأدلة التى صفاها علم النفس تسامحنا فى التصدى لبدعتين شائعتين كل الشيوع نبين ما فى أصـولهما النظرية من الاختـلال وما فى نتائجهما الفعلية من كبير الضرر

إحدى هتين البدعتين قائمة على زعم أن الخلق لا يتغير تقـدم بها « كنت » وتابعـه « شوبنهور » وجاراهما بعض الشيء « سبنسر » . أما الاول (كـنت) فبقوله أن النفس هبطت من علو وقد اختارت الخلق الملائم لها فهى تلزمه على العلات إلى الممات . وأما الثانى (شوبنهور) فبقوله « إنما

الخلق على ما خلق » بشاهدان ذا الأثرة ربما حمل على فعل الخير إذ يتبين انفسه مصلحة أو مغنماً أو مزيد رغد فى ذلك ولكنه لن يفعله حباً له . وأما الثالث (سبنسر) فبقوله أن الخلق الانسانى قد يتغير ولكن على توالى الحقب وكرور الأدهار

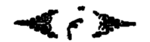
فزدنا على ما تقدم : ان التقول فى الخلق على هذا النحو ربما جاء من كون المتكلمين فيه ظنوه واحداً لوحدة اللفظة التى هو مسمى بها فاشتغلوا بتلك اللفظة عن التبحر فيما تحتها من الأغراض . وأكثر الناس يحملهم الكسل الذى أسلفنا وصفه على التفكير بالألفاظ دون المعانى لكنهم لو كدوا الذهن فى استخراج المؤدى الأصلح لوجدوا أن الخلق ليس إلا استخلاصاً ، والمستخلص من قوى متعددة لا يكون إلا متحولا بلا انقطاع ، ووجدوا كذلك أن الخلق ان كانت له وحدة فكوحدة أوربة : وكما أن تنوع المحالفات فى أوربة أو رقى دولة أو عثار أخرى يغير الحالة أى المحصل فعلى هذا النحو شهواتنا وإحساساتنا وتصوراتنا لا تفتأ تتحول وفى وسعها بما تعتقده فيما بينها من المحالفات أو تنقضه من العهود

لها هى الغبطة التى نغنمها من مجهود أحسنا تصريفه. كان أساتذتنا يقولون لنا أنتم أحرار فنشعر انه قول فى حقيقته مكذوب ولـكن ننخدع مجاراة لمذهب الفيلسوف « تين » وأشياعه ودفعاً لعناء المناهضة إذ لم يخبرنا أحد ان للارادة محلا مذكوراً ولا ان الارادة تكتسب ولا ان فى الوسع اكتسابها بوسيلة ما. ولـكن شتان بين زعم الخياليين وبين الحرية الخلقية : لان هذه الحرية الخلقية هى كالحرية السياسية خليقة بأن تؤخذ جهاداً ، إذ ما من شىء قيم فى الدنيا يؤخذ بغير جهاد ، وخليقة بأن يدافع عنها استمراراً مخافة فقدانها ثم أنها هى الجزاء الوفاق للاقوياء والمهرة والمثابرين. وهى العروس التى لا يظفر بها غير الـكفء لها. ليست بحق ولا بمنة بل هى مكافأة أو هى أعلى وأسنى مكافأة. كنور الشمس من حرمه حرم أشهى لذات الحياة

الرغبة على التجريد ، لا تـكفى فلا بد لنا من الجهاد كذا تقتضى الطبيعة ولا يستطاع تسخيرها إلا من طريق الامتثال لسننها. يقولون من الناس من خلق فاقد الرغبة فاذا فقدت لم توجدها الوسائل ، صحيح ولـكن هل من رجل

واحد لا يفضل النبلاء الأخيار والعظماء الكبار على الزعانف الأذلاء والسكيرين السفهاء فاذا وجد الأيثار وجدت الرغبة ولو على ضعف وحيث وجدت جاز تنشيطها وتقويتها وإنماؤها أليست النواة وهى طعام فأر واحد تخرج السنديانة العظيمة التى تتكسر دونها الأعاصير ؟

لعل مذهبنا هذا لا يرضى لمشقته ولكنه ملائم لفطرتنا الخلقية موافق لغريزتنا النفسية وهو خير لنا من تلك البدعة التى تعرضنا بسوء نتيجتها لسخرية الأشهاد وعبودية الأعداء الداخليين الذين يقاتلون عمو الأرادة فينا



أشهر مشاهير أدباء الشرق

شوقى ، العقاد ، طه حسين ، كرد على ،
فريد وجدى ، خليل مطران ، عبد الله
فكرى ، الأفغانى ، محمد عبده ، فتحى
زغلول ، عبد الله النديم ، المنفلوطى

وضعه

محمد محمد عبد الفتاح

الجزء الثانى

في نوابغ الأموات

الطبعة الأولى

الناشر

حسين حسنين

صاحب المكتبة المصرية بشارع العشماوى بمصر

فهرس الجزء الثانى

صحيفة



المرحوم عبد الله فكرى باشا

١

المرحوم

عبد الله فكرى باشا

ترجمته

هو عبد الله فكرى باشا بن محمد افندى بليغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد ولد عام ١٢٥٠ ﻫ ولما توفى والده سنة ١٢٦١ ﻫ كان لايزال فى الحادية عشرة من عمره فنشأ بعد وفاة والده فى حجر أحد أقارب أبيه وكان قد بدأ فى تعلم القرآن وحفظه حتى إذا ما أتمه حفظاً وأجاده تلاوة وتجويداً طلب العلم بالجامع الأزهر الشريف وأخذ علوم الفقه والتفسير والحديث واللغة والعقائد والمنطق على يد كل من الشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد عايش والشيخ حسن البلنانى وغيرهم وكان فى هذه الأثناء يتعلم أيضاً اللغة التركية فأجادها ثم لم يلبث أن تعين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدائى سنة ١٢٦٧ ﻫ وكان لايزال منكبًّا على تحصيل العلوم بالأزهر الشريف فكان ينتهز فرصة الفراغ قبل ذهابه إلى الديوان وبعد عودته منه ليذهب إلى حيث يتلقى العلوم — ظل فى هذا الديوان مدة حتى انتقل

إلى ديوان المحافظة ثم إلى وزارة الداخلية بوظيفة مترجم ثم لم يلبث أن انتقل إلى المعية السنية فى عهد المغفور له سعيد باشا وظل فيها إلى أن تولى الخديوى الأسبق ساكن الجنان اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ هـ فأبقاه المغفور فى معيته وظل صاحب الترجمة فى خدمته فكان ينتقل معه ويرافقه فى روحاته وغدواته وكان أيضاً يرافق الحرم الخديوى فى رحلاتها حتى أنعم عليه فى سنة ١٢٨٢ هـ بالرتبة الثانية مع لقب البيكوية

وفى سنة ١٢٨٤ هـ اسند إليه الجناب الخديوى ملاحظة الدروس الشرقية وهى العربية والتركية والفارسية بمعية أنجاله وغيرهم من أمراء العائلة الخديوية فأخذ على عاتقه وجوب القيام بهذه المهمة بنفسه بأن يلقى الدروس شخصياً وأحياناً يراقب ماهية التعليم والتدريس ويباشر العمل مباشرة دقيقة حتى جاء عام ١٢٨٦ هـ فنقل إلى ديوان المالية فعهدت إليه مسألة النظر فى أمر الكتب التى كانت فى المحافظة إذ ذاك وابداء رأيه وملاحظاته فيها فأخذ منذ ذلك الحين يتردد مدة على ديوان المحافظة لفحص هذه

الكتب وبعد أن فرغ من فحصها رفع تقريراً مطولا مفصلاً عن هذه الكتب جاء فيه أن وجودها بالديوان (المحافظة) ضرر كبير وأن من الواجب ضرورة وضعها في مكان خاص داخل خزائن مخصصة لذلك حتى ينتفع الناس من وجودها هناك وقد نقلت الكتب المذكورة إلى المكتبة الخديوية المشهورة فى سراى درب الجماميز وبعد القيام بهذه المهمة كان المجلس الخصوصى في ذلك الحين (مجلس الوزراء الآن) مشتغلا فى جمع اللوائح والقوانين وتعديلها وتنقيحها فعهدت الى المرحوم اللوائح والقوانين التركية فأخذ فى العمل حتى سنة ١٢٨٧

وفى سنة ١٢٨٨ هـ عين وكيلاً لديوان المكاتب الأهلية وكان رئيسها إذ ذاك المرحوم على باشا مبارك وفى سنة ١٢٩٤ عين صاحب الترجمة وكيلا لنظارة المعارف العمومية وأنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة ثم أسندت اليه أيضاً مع بقائه فى وظيفة وكالة وزارة المعارف وظيفة الكتابة الأولى بمجلس النواب وفى سنة ١٢٩٩ عين ناظراً للوزارة وفى شهر رجب من تلك السنة أعفى من الخدمة كما أقيل الوزراء

الاخرين منه لاحوال اقتضتها الثورة العرابية المشهورة
ولما انقضت الثورة المذكورة وأخذت الحكومة في محاكمة
أعضائها كان المرحوم صاحب الترجمة من ضمن هؤلاء الذين
قبض عليهم وقد أظهرت المحكمة براءته إلا أن الحكومة
قطعت عنه المعاش الشهري الذي كان يتقاضاه فشق عليه
الأمر والتمس امتثوله بين يدي الجناب الخديوي في يجب
لي طلبه فأخذ ينظم قصيدة يمدح فيها الجناب بدى
ويظهر له براءة ساحته ويتظلم فيها مما لحقه من إيقاف صرف
معاشه وها نحن نقتطف منها شيئاً للملاحظة قال :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى

وكبر إذا وفيت وجناب الكبير

وقف خاضعاً واستوهب الاذن والتمس

قبولاً وقبل سدة الباب في عشر

وبلغ لدى الباب الخديوي حاجة

لذى من يرجوه البشر والبشر

لدى باب سمح لراحتيه مؤمل

صفوح عن الزلات يلتمس العذر

تنوء الجبال الراسيات لحامه
إذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا
يراقب رحمن السموات قلبه
فيرحم من فى الأرض رفقا بهم طرا
مليكى ومولاي العزيز وسيدى
ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا
بأمر فقد جاؤوا به زوروا نكرا
حلفت بما بين الحطيم وزمزم
وبالبيت والميزان والكعبة الغرا
لما كان لى فى الشر باع ولا يد
ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا
ولكن محتوم المقادير قد جرى
بما الله فى أم الكتاب له أجرى
تذكر يامولاى حين تقول لى
وانى لأرجو أن ستنفعنى الذكرى

أراك تروم النفع للناس فطرة
لديك ولا ترجو لدى نسمة ضرا
فعفوا أبا العباس لازلت قادراً
على الأمر ان العفو من قادر احرى
وحسبي ماقد مر من ضنك أشهر
تجرعت فيها الصبر طعمه مرا
يعادل منها لشهر فى الطول حقبة
ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى
أ كابد فى أيامك البؤس والعسرا

فما عرضت هـذه القصيدة على سموه أجلها وأحلها
المكانة التى تليق بها وسمح له بالمثول بين يديه فلما مثل بين
يديه ألقى أمامه قصيدة أخرى جاء فى مطلعها

ألا ان شكر الصنع حق لمنعم
فشكر الآلاء الخديوى المعظم
مليك له في الجود فخر ومفخر
على كل منهل من السحب مرهم

سأشكره النعماء ماعانقت يدى

يراعى أو استولى على منطق فمى

فلما سمع سموه منه ذلك أمر باعادة صرف معاشه اليه

وفى سنة ١٣٠٢ سافر إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج الشريف فقابله علماء مكة والمدينة وأدباؤها بالترحاب وأحلوه بينهم المكانة التى تليق به وبشخصه وقد وضع مؤلفاً عن ذلك بعنوان (الراحلة المكية) وفى السنة التالية توجه الى بيت المقدس والخليل لزيارتهما وقد عرج إلى بيروت حيث مكث فيها شهراً واحداً لاقى فى أثنائه مالاقاه فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم سافر إلى بعلبك حيث زار آثارها وتفرج عليها ثم سافر منها بطريق لبنان إلى بيروت وظل فيها شهرين كان موضع احترام الجميع واجلالهم طول هذه المدة ثم سافر من هنالك الى مصر

وفى سنة ١٣٠٦ انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدينة استكهولم وكان نجل صاحب الترجمة عضواً من أعضاء هذا الوفد وقد نفح الجناب الخديوى صاحب الترجمة قبل سفره

من الاسكندرية بالنيشان المجيدى الثانى وقد مر فى اثناء سفره على تريستا من أعمال النمسا والبندقية وميلانو من أعمال إيطاليا ولوزان من أعمال سويسرا وباريس وقد أقام فيها أكثر من عشرين يوما شاهد فى أثنائها المدينة وضواحيها وآثارها ومعارضها فشاهد فيها عجائب الصنائع وغرائب الفنون وبديع الاتقان ودقيق العمل وقد سر بما رآه ثم برحها الى لندرة عاصمة البلاد الانجليزية ومنها الى نوتردام ولاهى وليدن وقد زار مكتبتها ومطبعتها الشهيرتين ثم سافر الى كوبنهاجن عاصمة الدانيمارك ومنها الى حيث يجتمع المؤتمر الذى أرسل من أجله وقد تعرف بالعلماء الذين اجتمعوا فى المؤتمر كما أنهم احترموه واجلوه لماله من مكانة العلمية السامية وقد أنعم عليه ملك السويد والنرويج أسكار الثانى نيشان (وازة) من الدرجة الأولى وفى أثناء عودته الى بلاده من المؤتمر مر على برلين عاصمة البلاد الالمانيه وفينا عاصمة البلاد النمساوية فلقى فيهما ما لقيه فى غيرهما من الاحترام وكان فى أثناء عودته يعد العدة لتحرير ما لاقاه فى رحلته وما شاهده الا أنه فوجىء بمرض السكتة الذى اعتراه فى شهر

رجب سنة ١٣٠٧ فاضطر الى ابقائها حتى اذا ما شفى أتمها ولكنه المرض عاوده مرة أخرى بعد ظهر يوم الخميس الموافق ٧ ذى الحجة وهو عائد من أبعاديته بتلحوين فحال هذا المرض اتمامه تحرير هذه الرحلة وقد زاد المرض عليه فتوفى الى رحمة الله تعالى فى الساعة الثانية العربية من صباح يوم الأحد عاشر الشهر وهو اليوم الذى ينحر فيه المسلمين النحائر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا وقد تفضل الخديوى فابرق الى آل الفقيد يواسيهم فى مصابهم ويشاركهم فى أحزانهم وهذا دليل على أنه ظهر لسموه إخلاص الفقيد والتفافه حول عرشه .

كان الفقيد شاعراً مطبوعاً وكاتبا عبقريا واستاذاً بليغاً تطور فى الشعر تطوراً بعيداً وذهب فى انشائه مذهب الشعر البصرى

أما رحلة الفقيد الى المؤتمر فقد عنى بنشرها نجله المرحوم أمين باشا فكرى ضمن كتاب ارشاد الألباب الى محاسن أوروبا وهو مجلد ضخم جدير بالمطالعة لما حواه من ذكر عوائد الناس فى البلاد الأخرى ومعتقداتهم بل ولما

حواه أيضاً ونثر الفقيد مما لم ينشر الا فى هذا الكتاب وقد طبع بمصر سنة ١٨٩٢

أما مؤلفات الفقيد فكثيرة نخص بالذكر منها المقامة الفكرية فى المملكة الباطنة وقد طبعت هذه المقامة فى مصر مراراً عديدة وهذا برهان ساطع ومثال ناطق لما كان له من الباع الطويل خصوصاً فى الآداب والنظم ولا غرو فوفاته كانت ضربة من الضربات القاضية على العلم فى مصر ورجاله



المختار من نثره

المقامة الفكرية

حدثني صاحب مبارك . ليس في فضله يشارك . قال كان ببعض الأمصار . فيما مضى من الأعصار . رجل من التجار . ذو شرفٍ ونجار . قد رزق سعة الغنى . وجنى ثمرات المنى . وكان حسن المعاملة . كثير المجاملة . سليم الفؤاد . حلو الوداد . فطار صيته في الأقطار . وصار في جميع الأمصار . فاتسع نطاق تجارته . واتسعت دائرة إدارته . ورزق بولد سرّته سيرته . وحسنت علانيته وسريرته . فكان له رفيقاً . وعلى أهله شفيقاً

نعم الإله على العباد كثيرة   وأجلهنّ نجابة الأولاد

وعاش الرجل مدة على هذه الحال . رخي العيش ناعم البال . قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال . حتى قارب مدى العمر حدّه . وقد بلغ إبنه المذكور أشده . فلما أظله يومه الموعود ، وأحس بانقضاء أمده المحدود . دعا بابنه في

خلوة من الاغيار . وأوصاه يوما بالبررة الأخيار وقال فيما أودعه سمعه . وأراد به نفعه . يابني إني أرى الشمس آذنت بالأفول . وقد عزم الغريب على القفول . واليوم قد أزف الرحيل . والبقاء في هذه الدار مستحيل .

كل ابن أنثى وان طالت سلامته

يوماً على آلة حدباء محمول

وانا مكاشفك بخبيئة في الضمير . ومخبرك بأمر خطير ولا ينبئك مثل خبير . ان عندى كنزاً أدلك عليه . لترجع بعدى عند الحاجة اليه . فيكون لك ظهراً في شدائد الأيام ونصيراً في مكايد الانام . فتنح لما أقول إقفال لبك واحفظه كسواد عينك وسويداء قلبك . وما أردت كنز مال مدفون . ولا نفيس جوهر مكنون . فإن مالى لديك وتجارتي بين يديك . والعقار كما علمت . واليسار مثل ما فهمت والرزق متيسر . وأمر التجارة غير متعسر . ولكن قصدت ماهو أعلى وأغلى . وأجدر بالرعاية والعناية وأولى . وما هو إلا صاحب غرفته قديماً . وعكفت على وده مستديماً . قد هذبته الليالى بمرها : وجرعته كؤس حلوها ومرها . وكنت

جربته فى خيرها وشرها . وبلوته فى نفعها وضرها . وكررت
اختباره مراراً . فزاد اختبارى اختياراً : وطول تجربتى
منزلة عندى ومقدار . وكان لى كما قيل

إن أخاك الحق من يسعى معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

وأنت ترى كثرة الأصحاب حولنا . وإكثارهم من
الزيارة لنا . ولكن كل ألف لاتعد بواحد

واذا صفا لك من زمانك واحد
فهو المراد وعش بذاك الواحد

وهذا الرجل الذى ذكرت لايتردد كما يترددون
ولا يبدى من ظاهر الحال . والتجمل بالمقال . مثل مايبدون
وأنا أزوره المرة والمرتين فى الأسبوع . والود فيما بيننا غير
مقطوع ولا ممنوع . فانما الحب فى الصدور لا فى الثغور
وفى شغاف الجنان . لافى أطراف اللسان

وليس أخى من ودنى بلسانه
ولكن أخى من ودنى وهو غائب
ومن ماله مالى اذا كنت معدماً
ومالى له إن أعوزته نوائب

فهذا هو الكنز الذى قصدت . و خرز الذى أردت فاشدد على صحبته العرى . ولا تنبذ بنودته فى العرا . و تبع هذا القول بنصائح ارتضاها . و أمور أمضاها . وكانت حاجة كانت فى نفس يعقوب قضاها . ثم أنه ودعه . وودع الدنيا معه . ونزل مع أعماله فى رمسه والتحق حاضر يومه بغابر أمسه . فأقام إبنه مراسم ... . وقضى من مقتضيات العادة الجارية اللازم . و أخذ فى إدارة التجارة كالأول وصار عليه المعول . وكأن الحال ماتحول . إلى أن جتمع عليه جماعة من أنداده . وأظهروا التحقق بوداده . وتملكوا بحسن ملاطفتهم أزمة فؤاده . وكانوا أتبع له من خلاله وأطوع من يمينه لشماله . وانكف عنه بالضرورة أصحاب الوالد . الواحد بعد الواحد . حيث رأوه لهؤلاء الأقران أميل . ومكانتهم لديه أمتن . و متزاجه معهم أجمل و أكمل

وأحاط به هؤلاء الجاساء . ولزموا بيته صباح مساء . فلما خلا لهم الجو ولم يبق فى الصحبة ليت ولا لو . أخذوا يذكرون الشرب والحان . ويتذاكرون الطرب والألحان . والمثالث والمثانى . والغوانى والأغانى . والصاحب يقتدي بصحبه . ويسرق من طباع مصاحبه

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى

فحركوا من رغبته الساكن . وجروه الى ما يكون فيه ذلك من الاماكن . فجرى معهم فى فنون الجنون . ومجال ابنة الزرجون . فما زال حتى قصر على هذه الشؤن ميله وحصر فيها نهاره وليله . فلا جرم اختلت تجارته . ونحلت ارادته . فمال على المال الموجود في خزينة النقود فبسط الراح للانبساط والراح . يكيل بالقدح ولا يبالى بمن ذم أومدح حتى فنيت الصفراء والبيضاء واشتبه جوف صناديقها والفضاء . فوضع يده فى الجواهر وأخائر الذخائر . يبيع ويضيع ويصرف ويتلف ويلحق دنيها بفاخرها . حتى أتى على آخرها . ثم انثنى على العقار يبيعه . ويضيعه فى تحصيل

لذاته . ورضا لذاته وقضاء شهواته . ثم أتبعه المزارع والضياع فعم جميعها بالضياع . وتفرق عنه الأتباع والخدم . وكان باع الدواب فيما تقدم . فلم يبق عنــده صاهل ولا ناهق . ولا صامت ولا ناطق . اللهم إلا دار واحدة . كان يسكنها مع الأهل والوالده . وكان حين أخذ فى انحطاط الحال . وأشرف على الاقلال . صارت جموع إخوانه . وزمر أخدانه وخلانه يتسللون قوماً بعد قوم . ويقلون يوماً بعد يوم .

الناس يخون من دمت له نعم

والويل لمرء إن زلت به القدمُ

وما زالوا كذلك حتى ذهب آخرهم مع آخر المال ولم يبق فى صحبته غير الهم والغم والملال . وسوى الندم والسدم والبلبال . فضاقت الدنيا فى عينه . وتمنى قرب حينه . فجلس إلى أمه حزيناً باكياً . ساخطاً على دهره شاكياً نادماً سادماً يعضُّ يديه حسرةً واستكانة ومهانة

وقال يا أماه قد بلغت الفاقة غايتها . وتجاوزت الشدة نهايتها . ولم يبق عندنا ما يمسك الرمق . ويطفئ هذه حرق

فهل ترين أن نبيع هذه الدار كباقى البيوت ونصرف من ثمنها على القوت . ونتجر فى بعضه على بركة الحى الذى لايموت . فقالت يابنى إذا بعت مأوانا . فأين يكون منوانا . وقدر بينا فى العز والسعادة . ولم تسبق لنا بالخروج فى الأزقة عادة . على أنها موقوفة من الأجداد . على الأهل والأولاد والأحفاد . ولكن أين أنت من صديق الوالد . الذى فضله على الطريف والتالد . وأخبرك عند مماته . فى الأخير من أنفاس حياته . إنه صديق حميم وكنز عظيم . فامض يابنى لداره . واستضئ فى ليل هذه الشدة بأنواره . فعسى أن يساعدك بثرائه . أو يسعدك بآرائه . فليست وصية الوالد سدى . وان طال عليها المدى . فقال لعن الله النسيان . لقد كنت أنسيته منذ أزمان . ولقد أشرت بالرأى السعيد . وقربت من الخير كل بعيد . وهذا هو الوقت الذى يدخر مثله لأمثاله . ويحتاج فيه إلى فضله وأفضاله . وقد ضاقت النفوس . ولا مخبا لعطر بعد عروس . ثم قطع حبل المقال . ونهض كأنما نشط من عقال . ومضى يحدث نفسه ببلوغ الآمال . ويستبشر بخير الحال والمآل . ويقول جزى الله

الوالدة خيراً وفياً . فقد ذكرتني خلاً وفياً . ويرحم الله الوالد فانه كان بى حفياً

سأبلغ أسباب العلا بجهاده

فليس مقال الوالدين يضيع

ويقول في نفسه الآن أقول له وأقول . وبلغ بفضله وحسن همته المأمول . فليس بيني وبين منى إلا رؤية محياه . حياه الله تعالى وبياه . وهيجرا من هذه الأمنى . وما تحدثت به نفس العاني من معاني

إذا ما خال عاني الضعيف بنفسه

أتته الأماني من جميع جنوب

وكان قد زاره مرات . في أثناء خضوع ومسرات . رعية لأبيه . لا الرغبة فيه . وذلك حين كان في ثمرة نعيه . وسكرة لهوه وطربه . فكان كلما رآه بجله . ويعلو عنده محله . ويقدمه بصدر رحيب . ويقابله ببشر وترحيب . فلما ضربه الدهر بمخالبه وعضه بأنياب نوائبه . قصده كمن يجتلي أنواره . ويجتني من روض فضله الوارف الظلال أنواره . ويشكو إليه من أنقضه . ويستجير به من لذله . وهو واثق بالنجاح . جازم بالفلاح .

مستيقن بان صباح اليسر من ليل العسر قد لاح. فوصل إلى داره . فى حالة رديئه . وهيئة مسيئه . يكاد يرثى لها الحسود . وتصفو لها القلوب السود . وكان يجىء فى تجمل وجمال . وأبهة وكمال . بين أنصار وأشياع . وخدم وأتباع. والحاصل أنه تقدم البدار . ودخل الدار . وخدامها عنه منقبضون . مغضون ومعرضون . لم يخاطبه أحد ببنت شفه . وكأنهم ليس لهم به معرفه

ماالناس إلا مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا فان وثبت

يوماً عليه بما لايشتهي وثبوا

فخجل من أوضاعهم . وسخط من طباعهم . إلا إنه قال هؤلاء قومٌ لئام . ليس على أمثالهم ملام . والآن يعلم رب المنزل. فيبادر وينزل. ولابدَّ أنه يؤدّبهم. والغالب أنه يضربهم. ووقف ينتظر من إقباله . واستقباله سالف عوائده . ويترقب تحقيق ما كان وعاه من قول والده . فما كان إلا أن أخرج الرجل رأسه من شباك قصيّ . وأرسل اليه على لسان غلام

خصى . يقول له غير منبسط للكلام . فاذهب بسلام . فلما تنحى الفتى ماشياً . كاد فؤاده ينخلع . حتى تخيل أن الأرض بتلعته . أو الريح قتلعته . أو السماء انطبقت عليه . والنجوم تناثرت حواليه . فان النقمة من محل النعمة أضر . والصبر من حيث يرجى الشهد أمر

وإذا استرجاه من حيث يرجى

كان خيراً فذلك عين البلاء

والفتى وان مسه الضر . وأصابه الفقر المر . لأنه ابن نعمة وخير . تأبى نفسه الضير . فكاد أن يسقط على الأرض صعقاً . وينشق صدره حنقاً وقلقاً . إلا أنه تماسك تماسك ذوى الألباب . وأسرع بالخروج يبتدر الباب سرور ودموعه تسبقه . وزفراته تكاد تحرقه . وهو يقول تباً لهذا الغادر . فانه ألأم من مدر . أهذا الذى كنت أرجوه للاشدائد الوجوه . ترب فوه . فقد كذب واصفوه

ياليتنى قبل مت جوعاً

ولا أملت الذى شيء

فالموت في نعمة وعز

خيرٌ من الذل للكريم

وليت رجلا حملتني له قطعت . وعيناً هدتني سبيله قلعت

ياليتني مت قبل هذا   أوليتني لم أكن خلقت

ورجع تضطرم نيران فؤاده . وتغلي مراجل أحزانه .
فقص على الوالدة ماجرى من الرجال وخدمه . وما كان من
خيبة سعيه وندمه . فسلته ببعض الكلام . وحكيات ماجرى
على الكرام . وقالت يابني

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه

وليس عليه أن يساعده الدهر

فلا تجزع من تقلب الدهور . وعجائب المقدور . واصبر
على ماأصابك فأنت بالصبر مأجور . ومن صبر وغفر إن
ذلك من عزم الأمور

دع المقادير تجري في أعنتها

ولاتبيتن الا خالي البالي

مابين غفوة عين وانتباهتها

يقلب الله من حال الى حال

وما أحسن مقيل

فاصطبر وانتظر بلوغ الأمنى

فالرزايا إذا توالت تولت

وإذا وهنت قواك وجلت

كشفت عنك جمة وتجلت

*

وعقبى الصبر الجميل جميلة

وأحسن أخلاق الرجال التحمل

ثم قال قم فبع الآن هذه الأثواب . وانتظر لطف
من مسبب الأسباب . فغيض من عبراته . وخفض من زفراته .
ونهض فباع الثياب . وصار يصرف من ثمنها بحساب .
وفي خلال ذلك أقبلت عجوز تسأل عن داره . وتستقصي
من الجيران عن خبره . ثم دخلت على والدته فسلمت
واستغفرت لوالده المرحوم وترحمت . وقالت حضرت من
الغرب منذ أيام . وكنت حضرت مرات قبل عواه .
وأحضرت بعض حلي بعته على يد المرحوم . وأخذت ما يسر
الله من الربح المقسوم . والآن جئت لمثل ذلك الأمر . ومعي

من نفيس الياقوت والماس والدر . وفى إبن المرحوم إن شاء الله الخير . وهو على كل حال أحق وأولى من الغير . فمودة الآباء . تنتقل للأبناء . وقصدى حج البيت المحرم . وزيرة قبر النبى المكرم . صلى الله عليه وسلم

واذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وأريد أن أجاور فى الحرم المطهر . وأعود ان شاء الله بعد عام أو أكثر . وسأترك مامعى ليباع . إلى أن أعود من تلك البقاع . فحضر الفتى فكلمها وأكرمها . وأمنها بايمان أكدها وأبرمها . فسلمته قدراً صالحا من الأحجار الغاليه . وقومتها بأثمان مناسبة غير غاليه . لينتفع بما يقسم من الربح المقدر . ويحافظ لها على أصل الثمن المقرر . وكتب بها وثيقة بالاستلام. ثم ودعته وانصرفت بسلام . فعمد الفتى إلى دكان فاكتراها . وإلى بعض ملابس يسيرة فاشتراها . وجلس فى دكانه يبيع . حتى أتى على الجميع . فعزل أصل الثمن جانباً . وكان للخيانة مجانباً . وصار يتجر فى الربح المتاح . وفتح عليه الكريم الفتاح . وكان فى البيع والشراء حازماً . وللصدق والأمانة ملازماً . فأتمنته التجار على نفائس الأموال . وانتظمت له الأمور واستقامت

الأحوال . وفتح الله له أبواب الاكتساب . والله يرزق من يشاء بغير حساب . فلم يمض عليه نحو سنة . إلا وقد صار في حالة حسنة . وهيئة مستحسنة . وكأنما كانت الشدة غفوةً أو سنة

اذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً
فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وما زال على هذه الحال حتى استحال فسدأحواله صلاحاً . وعادت خيبة آماله فلاحاً . فصار يشترى كل ما أمكنه . مما كان باعه من الامكنة . ويسترد بعض ما أضاع من القرى والضياع . والانعام والدواب . والأدوات والأثواب . وتأخر حضور العجوز جملة أعوام . وهو يدعو لها بالخير والسلامة على الدوام . ويرى أن طلعتها كانت له طالع سعود . وينتظرها السنة بعد السنة أن تعود . ولا يعلم لها من خبر يؤثر . ولا يرى لها من عين ولا أثر . ثم أنه لما حسنت حاله . وفارقه أمحاله . وزانت نقمته . وزادت نعمته . ونسى الغمه . وادكر بعد أمه . تذكر ما كان من أمر الرجل الذى سره . وحشى بغيظ وحقد حشره .

فالتهبت نار غيظه الكامن . وبدت آثار غضبه من المكامن.
وقال لابد أن أقصده . وأعرف مقصده . وأعنفه على
ماحصل . وأعرفه بما وصل . من لطف الله واتصل .
وأشفى النفس من ذلك القهر . ثم لا أعود اليه مدى الدهر.
فلبس أفخر أثوابه . وركب أحسن دوابه . ومضى له على
غلوائه . فى زينته ورونقه . فقام له الخدم تبجيلاً . وبادروا
يديه تقبيلا

اذ كنت ذا رونق الورى فأنت المعظم فى العالم
وحسبك من نسب صورة تخبر انك من ادم

وقابل لرجا بقبول وإقبال . واستقبله بالتر أحسن
ستقبال . وافتى عاس المحي . وما سم ولا حيا . بل وف
تعم فى ماحثت نسار ولا كلام . ولا قصدنك الآن
لرغبة فى مرام ولكن لأذكرك بسوء صنيعك معى حين
خاب فيك رجائى وسعى . حيث قلت ماقلت . وفعلت
فعلتك التى فعلت . ألم تر قول النبى المرسل . أكرموا
عزيز قوم ذل . ولم تحفظ مارواه عبد الله بن عباس . قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس أنفعهم للناس.

أو يرد ناث يومها على خطر . إنه ماعند الله بشيء أفضل
من جبر الخواطر . أو قسم قول شاعر

لاتقصر يد لاحسن عن أحد
مادمت تقدر و الأيام تارات

واشكر فضيلة صنع الله إذ جعلت
إليك لا لك عند الناس حاجات

وهلا رددتني رد جميل . إذ لم تكن موضعاً للتأميل .
قال رجل : مهلاً بني مهلاً . وأهلاً بعتابك وسهلاً

من عتبت محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

قال أخي ليس هذا عتاب محبة . ولا سابقة لصحبة .
ولكنه لوم . ولا احتياج لعله لديه . ومن ينبغي العتب على
الجفاء . إذ لم يكن في أصل طبيعته الوفاء . ويرحم الله
من قال .

إذا ما عتبت على الملول فإنما
أخط بأقلامي على الماء أحرفا

واذا ما القلوب لم تضمر الود فلن يعطف العتاب القلوبا

قال الرجل يابنى الصلح خير . ولا ضر فى العفو ولا ضير.

من ذا الذى ماساء قط　　ومن له الحسنى فقط

وأى جواد لايكبو　　وأى صارم لا ينبو

ومن يبغ الصديق بغير عيب

سيبقى الدهر ليس له صديق

فانشد الفتى

جربت دهرى وأهليه فما تركت

لى التجارب فى ودّ امرئ عرضا

وقال لله در أبى العتاهية حيث قال. وما أوفقه لصورة الحال.

أنت ما استغنيت عن صا　　حبك الدهر أخوه

فاذا احتجت اليه　　ساعة مجك فوه

لو رأى الناس نبيًّا　　سائلاً ما وصلوه

وأى نفع لصديق لايصدق فيه رجائى . وصاحب لايصحبنى فى شدتى ورخائى

اذا لم تكن إن أدبر الدهر صاحبى

فكل الورى أن اقبل الدهر أصحابى

فقال الرجل يابنى لاتؤلم بهذا القول مسمعى . وراع

طول صحبة الوالد معى . فطالما اتفقنا فى الأخاء . وتقلبنا فى حالتى شدة ورخاء

اذا لم تجدنى للمودة موضعاً

فرع ودادا من ابيك تقدما

فقال الفتى وهل غرنى بك وضرنى من جانبك . إلا ما كان حكاه لى أبى من مناقبك . حتى حسبت الجمر تمراً . وظننت التراب تبراً . فأوردتني شر الموارد . وأملتنى بذنت الوضع البارد

وكنت كالمتمنى ان يرى فرجا

مع الصبح فلما ان رآه عمى

فلا أحب أن تنظر عيناى لعينك . وهذا فراق بينى وبينك. فقال الرجل سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً . وا كاشفك بما لم تعرف له خبراً ولا خبراً . إن عندى لك خبيئةفاعلمها. وأمانة قم فتسلمها . فظن الفتى أنها خبيئة تقود. من مال الوالد أو الجدود . فقام معه . وسار وتبعه . فانتهى لحجرة فى الدار . فيها امرأة فى خمار. فاستقبلته حين أقبل بالسلام. وتأمل الفتى جرس صوتها فى الكلام . فاذا هى العجوز

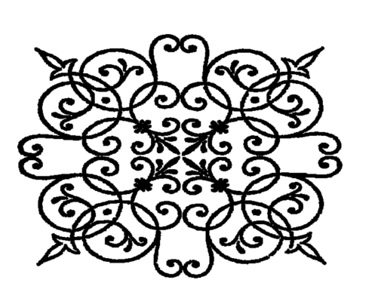
المعهوده صاحبة الجواهر المدوده .فوقف باهتاً متحيراً
ساكتاً وقال الرجل خذ أمانتك أيها الأمين . وأعطاه
الوثيقة التي كان كتبها بخط اليمين . وأشهد فيها على نفسه
باستلام ذلك الحلى الثمين . وقال هذه المرأة أم عيالى. وتلك
الجواهر التى أعطتك من مالى . وما كان مارأيته من سوء
المعاملة التي ذكرتها . وردى لك بالصورة التى أنكرتها .
إلا لاقامة أودك . وإرادة رشدك. فاني لما رأيتك في ثوب
رث . وفى حال غث .علمت انك أتلفت التايد والطارف .
وخالفت الذى علمك الوالد من المعارف . فأيقنت أن نصحك
وقتها لايفيد . وإن كل ماعطيتك بالسهولة يبيد . فانك ربما
تضيعه كالذى كان لديك . ولا يبقى منه آخر الأمر شىء
فى يديك . فأردت بتلك المعاملة تقويم طبعك . وراعيت
من بعد ذلك تدبير نفعك . ففعلت ما فعلت وأرسلت لك
مع هذه المرأة ماأرسلت . فهذه حقيقة ماصار . إن فى ذلك
لعبرة لأولى الأبصار . فأكب الفتى على يده يقبلها ويلثمها .
وأقبل على المرأة يدعو لها ويعظمها . وقال للرجل والله لقد
أجملت فأجزلت . أو كرمت فأتممت . وصيرتنى لك عبداً

رقيقاً. ولا أقول صاحباً وصديقاً . ولقد صدقت فراسة أبي فيك. ولست أقدر على أني أكافيك. وهذا ثمن خلى عندي في الكيز. وأنا عليه إلى الآن حافظ أمين. فهو فستين مالك. بلغك الله آمالك. بل جميع ما في يدي ملكك إن أردت

ولأشكرنك ماحييت وإن أمت

فليشكرنك في التراب عظامي

ولست أصلح فأقول لك اتخذني ولداً. واتخذني خادماً عندك وعبداً. ولئن أحياني الله بعد هذا عمراً . فستجدني صابراً ولا أعصي لك أمراً. فقال الرجل سأتخذك بنا ولداً. وإن لم أصلح مخدوماً وسيداً. فقال كيف لا يسعني لذلك. وأنت السيد المالك. ولم يكن للرجل أولاد فتبناه. وشركه بعد ذلك في غناه ومناه. وأقاما في غبطة وسرور. وحبور وحضور. حتى بلغ العمر حد نهاية. وكل شيء ينتهي لغاية



فيلسوف الشرق



المرحوم السيد جمال الدين الافغانى

٢

مرحزم

السيد جمال الدين الافغانى

تمهيد

الفلاسفة فى عظماء العالم وكواكب الأرض وشموس الحياة . الفلاسفة هم أولئك الذين يضيئون المعمورة وهم الذين يرشدوننا إلى طرق الصلاح والفلاح . الفلاسفة قوم يخرجون من بنات أفكارهم من العلوم مالا تقدر بأثمان وما نسميها (أزهار الاذهان) الفلاسفة هم أنبياء وقتهم ورسل دهرهم وأفصح بنى وطنهم وأبلغ رجال بلادهم .وأعلم الناس فى حينهم

ومن هؤلاء كان فقيد الشرق وبطل الفلاسفة والعلماء المرحوم (السيد جمال الدين الحسينى الافغانى) رئيس النهضة العامية المصرية ومعلم المرحوم الامام الشيخ محمد عبده

المرحوم كسقراط والشيخ محمد عبده كأفلاطون وسعد باشا زغلول كأرسطو بمعنى أن المرحوم جمال الدين كان معلم الشيخ محمد عبده كما كان سقراط معلم أفلاطون

والشيخ محمد عبده كان معه سعد باشا كما كان أفلاطون معه أرسطو

وزيادة على ذلك فإن السيد جمال الدين الافغاني لم يؤلف كتاباً في الفلسفة وليس هو وحده الذي أتى ذلك بل إن سقراط نفسه لم يؤلف شيئاً إلا أن تلامذته نقلوا فلسفته بعد أن حفظوها .

ولد رحمه الله سنة ١٨٣٩ م وهو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفدر ويتصل نسبه بالسيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي إلى الامام الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكان مولده بقرية أسعد آباد من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الافغان وكانت عائلته المرحوم منزلة عالية لدى الأفغانيين ومرتبة سامية ودرجة رفيعة وما ذلك إلا لأنهم يتصلون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يتملكون جزءاً من أراضي الأفغان ولكن دوست محمد خان جد الأمير عبدالرحمن إستولى على هذه الأراضي قوة واقتداراً وأمر بأن ينقل والد جمال الدين وبعض أخوات أبيه إلى مدينة كابل وكان صاحب الترجمة وقتئذ في ثمنة

من عمره ومـا ترك أبوه الأراضى التى كان تتملكها وأتى إلى كابل عنى بتربيته وتثقيف ذهنه بالعلوم وطرقه دار النور تاركا وراء ظهره الجهل والظلام . فتلقى مبادئ العلوم العربية من قراءة وكتابة ومطالعة وبعد أن تمكن من إجادة ذلك بدأ يتعلم العلوم العالية . كالتاريخ وعلوم الشريعة الاسلامية بمحتوياتها من حديث وتفسير وأصول وفقه وتصوف الخ والعلوم العقلية من حكمة سياسية ومنزلية وتهذيبية ونظرية طبيعية وإلهية . والمنطق والعلوم الرياضية من جبر وحساب وهندسة وهيئه ونظريات الطب والتشريح وقد ألم بهذه العلوم وهو فى الثامنة عشر من عمره . كان فى هذه الأثناء مثال النجابة والفطنة والنباهة والذكاء وكفى دليلاً على ذلك أنه تعلم كل هذه العلوم فى وقت قصير لا يكفى لتعلمها

طلب إليه البعض أن يسفر إلى بلاد الهند فأجابهم إلى طلبهم ومكث فيها عاماً ونيف كان فى أثناء هذا العام يطلع على بعض العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة حتى إذ ما أخذ كفايته منها سافر إلى الأقطار الحجازية لكى يؤدى فريضة الحج وليعرف أيضاً عادت

سـ ـنى هذه الأقطار وليختبر علومهم وقد قضى ء ما ينتقل
فيه من جهة إلى أخرى ومن قرية إلى قرية ومن مدن إلى
مكان حتى وصل إلى مكة المكرمة وكان وصوله عام
١٥٧٨م الموافق ١٢٧٣ هـ وقد تمكن أثناء سياحته أن
يقف على عادات كثير من الأمم وأخلاقهم وعلى كل شئ
فيهم وبعد أن أدى فريضة الحج عاد إلى بلاده فعين
فى حكومتهم فى عهد الأمير دوست محمد ...
سبب ... ومـ أرد هذا الأمير أن يسير بجيشه يفتح
هرة سار معه جمال الدين وصار ملازماً له طول
الحصار والحرب حتى توفى الأمير فى هذه المدة وفتح
المدينة بعد كل جهد وعناء وبعد ذلك تولى عليهم ولى عهد
شير على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق
خان بأن يلقى القبض على اخوته لأنهم يشرون فى نشر
دعوة معاهدات ولى العهد ومرة ضده وفى عدم إلقاء
القبض عليهم مضار كثيرة للحكومة فأصدر الأمير
أمره بالقبض عليهم وكان للأمير ثلاثة أخوة فى الجيش الذى
فتح هراة وهم الأمير محمد أعظم والأمير محمد أفضل ... تصر

جمال الدين للأمير محمد أعظم . فما علم هؤلاء الأمراء بذلك أسرعوا إلى الفرار وتفرقوا فى الولايات وذهب كل منهم إلى الولاية التى كان مخصصاً إياها له أبوه فقامت الفتنة والثورة واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد وقائع عديدة عصى أمر الأمير محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة مملكته وأنقذا والد عبد الرحمن الأمير محمد أفضل الذى سبق ذكره وكان مسجوناً فى سجن غزنه وجعلاه أميراً على أفغانستان ولكنه لم يلبث أن ذهب إلى دار الآخرة بعد عام من توليته فتولى الإمارة بدلاً عنه الأمير محمد أعظم خان شقيقه فمضى أمر الأمير واحتد نفوذه وارتفعت منزلة صاحب الترجمة لديه فجعله فى مرتبة وزيره الأول وكان استشيره فى كل صغيرة وكبيرة ولا يأتى عملا دون أن يكون نصه من رأى جمال الدين ولكن تقلبت الحال فقد أقبلت وقد أخذ أحد أبناء الأمير أغار بجيشه على عمه طمعاً فى الحصول على إمارته واجتذب من والده أكثر من إخوته ولكنه غلب وانكسر وأسر فقام الأمير والده بمحاربته (أى محاربة جيش أخيه) فكانت الهزيمة ملازمة له فأسرع الأمير بمغادرة هذه البلاد الى ايران

وهناك لم يكد يستقر على مكونه عدة أشهر حتى توفى إلى رحمة الله فى مدينة نيسابور

جمال الدين فى مدينة كابل ... فى

تى ومع ذلك لا خوف الأمير إذا مسسه أن تتجمهر الرعية عليه احتراما لبيت جمال الدين واتصاله بالنبي عليه الصلاة والسلام لأن هذا يمنع الامير من أن يغدر به سراً لا جهراً ولما أحس جمال الدين بذلك شرع فى مغادرة هذه البلاد فاستأذن الامير فى سفره الى الحج فأمره الامير أن لا يمر ببلاد ايران خوفاً من أن يلتقى هناك بالامير محمد أعظم الذى كان لا يزال حياً وأمره أن يرحل من ناحية بلاد الهندية وكان ذلك عام ١٨٦٩ أى بعد هزيمة الامير محمد أعظم بثلاثة شهور فاجابه جمال الدين الى طلبه ولما وصل الى التخوم الهندية قابلته حكومة بلاد الهند والشعب بالحفاوة والاجلال وأنزلوه منزلة الثقة به بينهم لأن الحكومة لم تسمح للعلماء بالاجتماع به ولا بطول إقامته فلم يمكث فيها الا شهراً ثم ركب احدى البواخر قاصداً الديار المصرية فوصل إلى السويس ومنها جاء إلى مصر حيث قضى فيها ٤٠ يوماً تردد

فيها على زيارة الجامع الازهر الشريف ومخالطة طلبته وقد تمكنوا من أن يستفيدوا من علمه مدة وجوده بين ظهرانيهم ثم عزم على السفر إلى الاستانه وتحول عن السفر إلى الأقطار الحجازية

وصل إلى الاستانة العلية وبعد عدة أيام قليلة من وصوله قابل الصدر الأعظم وكان يدعى عالى باشا فأنزله الصدر الأعظم أكبر منزلة وأظهر له من الحفاوة والاحترام ما يليق بقدره ومقامه ومع كل ذلك كان الفقيد يرى وهو مرتديا الثياب الافغانية شعار بلاده ومسقط رأسه ووطنه وهذا الزى عبارة عن القباء والكساء والعمامة ولم يلبث بعد مجيئه أن علت مكانته وارتفعت ولهج الجميع بذكره وذكر نبوغه وتفوقه فى العلوم والفنون حتى كان موضع حديث الامراء ومحور مسامرة الوزراء والكبراء والعظماء مع أنه غريب عنهم ويتكلم لغة غير لغتهم ووطنه غير وطنهم وملبسه غير ملبسهم وعاداته ليست كعاداتهم إلا أن النبوغ لا جنسية له . ولو افتخر اليونانيون بسقراط فأولى لنا أن نفتخر بجمال الدين . جمال الدين هو ذلك العالم

الذى رحل عن هذه الحياة بعد أن ترك لنا تلميذاً من تلامذته هو المرحوم الشيخ محمد عبده لدى جعلناه فيلسوف مصر المسلم

ولنعد الآن إلى حياة الفقيد فنه بعد ستة أشهر من وصوله إلى الآستانة عين عضواً فى مجلس معارف فأدى للآستانة بل لتركيا خدمات جليلة عظيمة و قترح طريقة تعميم العلوم فخالفه فى الموافقة على ذلك شيخ الاسلام وفى سنة ١٨٧١ طلب إليه مدير دار الفنون أن يلقى خطبة حيال انتشار الفنون ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه لا يجيد التركية فألح عليه المدير فى ذلك وشرع بكتابة خطبة التى سيلقيها وعرضها على نخبة من أعاظم الأتراك فاستحسنوها وهكذا ما كاد يأتى يوم هذه الخطبة حتى توافد جميع العظماء لسماع خطبته وما كاد الوقت يزف حتى عتلى جمال الدين منصة الخطابة وألقى خطبته ببلاغة سحرت القلوب وفتنت الفتية والشيوخ فنال الاستحسان وعلا مركزه بين جميع هؤلاء

ولكن بعض المشائخ أنكروا شيئاً من رائه واتصل لأمر بشيخ الاسلام الذى طلب من

فصدر له الأمر بالابتعاد بضعة أشهر حتى تخمد نار الفتنة وتهدأ الخواطر وله أن يعود متى شاء فتركها وأشار اليه بعض أصدقائه أن يأتي إلى مصر فجاءها في ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

لم يكن رحمه الله يقصد من مجيئه الى مصر الاشتغال فيها وإنما كان جل قصده التفرج على ما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم يكن يفكر في الاقامة بها إلا مدة قليلة ولكنه لما لقي المرحوم رياض باشا استماله اليه ورتبت له الحكومة مرتباً سنوياً يتناوله بدون نظير وكان قدر هذا المرتب ألف قرش صاغ ونزلا خاصا لا في مقابلة شيء

خدمة وقد تمكن بعض الطلبة المصريين من التعرف به فوجدوا فيه أدبا جماً وخارقة عقلية وكان يرحب بزائريه على اختلاف طبقاتهم ولا يتكلم بلا اللغة العربية الفصحى ولكنه إذا رأى من جليسه عدم مقدرته على معرفة ما يقول خاطبه بلغة عربية بسيطة العبارة وإذا وجده رجلا لا يعرف سوى العامية تنازل فخاطبه بها وكان لا يخاطب زائريه إلا في ما يعود عليهم بالنفع واذا ما أراد زائره الانصراف خرج معه ليوصله بشار ما وبابه بهمن الحفاوة وإذا خطب الناس خاطب

كان في موضوع الذي يهمه فلا يدع فرصة تمر دون أن يلقي
على أنفسهم عظة وعبرة لأولي الألباب وكان لا يأكل كثيراً
لأنه كان نعيض عن كثرة الأكل بتناول الشاي ولا
يدخن إلا نوعاً جيداً من لفافات التبغ الإفرنجية ولا يدخن
لأحد هذه اللفافات خوفاً من أن يأتي له بغير صنفه فكان
ه وكان حر الضمير عفيف النفس عزيزها
صادق لهجة وديعاً مع ثقة وعصمة ثابت الجأش قوي بعزيمته
تدرأ به في حيث القتال فلا يخاف وكان شجاعاً قوياً
لا يفتر بخيبة ومتاعبه ولا يخاف عاقبة الحاجة فلا يدخر مالا
ولا يخاف عوزاً حتى قيل عنه أنه عن مصر وكان
لا سرو غير حاوي وصل بدي ذهب
فنه دونه ورث ونفر من كبار تجار يقسمون
بعض من النقود يستعينون بها عند الحاجة لس كرماً
حسن معروفه حفظوا من أنه حوج
أن أبيب لا بعد رياسة حين ذهب ، وكان عند المعركة
بعر كه بصبر على مصائب بقدر قوته بلاقي الصعب بصدره
رحب لا يخاف من إنسان ولا يمد يده إلى مخلوق

خاطب، نسأنا حثه على الجد والعمل حتى إذا رأى من المخاطب أذنا صاغية تركه وهو عالم أنه سيجد ويجتهد كان ذكياً نجيباً فطناً عاقلا مؤدباً مهذباً حسن الخلق قوى الملاحظة سريع الادراك حتى أنه كان يعرف ماتخفيه الصدور وما تحجبه الضمائر وما تكنه القلوب وقد تعلم اللغة الفرنسية حتى أنه كان يترجم منها إلى العربية ترجمة صحيحة خالية من الغلطات والشوائب فى ثلاثة شهور بلا معلم إلا من علم المبادىء والحروف وكان لايفوته كتاب فى آداب الأمم وفلسفتها وأحوالها إلا واطلع عليه وكانت أكثر قراءته للكتب العربية والفارسية وكان يجيد من اللغات العربية والافغانية والتركية والفارسية والروسية والفرنساوية والانجليزية وكل ما كانت تصبوا إليه نفسه هو ان يوحد كلمة الاسلام ويجمع شتات المسلمين ويجعلهم كلهم مملكة واحدة يأتمرون وينتهون بأمر واحد وقد بذل فى هذا السبيل كل مرتخص وثمين فلم يتخذ نه ولم يلتمس له كسباً حتى توفى دون أن يتمم أعماله .

كان أسمر اللون ممتلىء البنية أسود العينين نافذ جذاب النظر إلا أنه كان لايقرأ كتابا إلا وأدناه من عينيه ولكنه

: يستعمل النظارة تقط خفيف العارضين ذو شعر مسترسل كالرس ولا نبياء يرتدى جبة تنطبق على الكاحلين وعمامة بيضاء صغيرة على زى علماء الاستانة

ولما جاء فى مصر وتعرفت به الطلبة ذاع صيته وشهر هلال شهرته وبدأ يضيء على نحو بعده وقد وجه عنايته فى بدء الأمر الى محو الأوهام من عقول بنى الانسان وحمل تلامذته على الكتابة والانشاء فى الفنون الحكمية والأدبية والعلمية والدينية فأجابوا سمعاً وطاعة وكان فن الكتابة فى مصر من الفنون المندثرة فأحياه بحسن تدبيره وسعيه وقوة ذاكرته وكانت مدرسته هى داره فكان يعلم فيها تلامذته

وكان رحمه الله ميلا الى السياسة فخاض غمارها وكان يعلم أن مصر فى حاجة الى أناس يعملون نحو تدخل الاجنبي وأنه لابد من تغيير أحوالها فانتظم فى سلك الجمعية الماسونية وظل بها حتى صار رئيساً لها فأنشأ محفلا وطنياً تابعاً للشرق الفرنسوى دعى اليه مريديه ومحبيه من العلماء والكبراء والوجهاء حتى صار عدد أعضائه ما يقرب من ثلاثمائة عضو

وكان شديد الكره للدولة الانكليزيه يبغضها كل البغض ويحقد عليها كل الحقد فجاهر بعدوانه لهم وحقده عليهم حتى ترجمت فصول كان قد نشرها ونشرت فى الصحف الانكليزية وقد تولى الرد عليه اللورد غلادستون فلما عظم أمر محفله داخل الانكليز الخوف ووقع فى قلوبهم الرعب فبادر قنصل انجلترا إلى بث دعوة الدسائس في هذا المحفل ووشى به إلى الحكومة واشتد الجدال بينه وبين غلادستون والانجليز حتى بلغت مصر نهاية الارتباك وقد صرح المرحوم بأشياء قوت الساعين ضد الانجليز حتى تولى مصر المرحوم توفيق باشا فأصدر أمره بابعاده عن هذا القطر السعيد هو وتابعه أبو تراب فخرج منها موليا وجهه شطر البلاد الهندية وكان ذلك عام ١٢٩٦ ه أى سنة ١٨٧٩ م وأقام فى بلدة تسمى حيدر آباد الدكن وهناك كتب رسالة عن بى مذهب الدهريين) ولما بدأت الحوادث العرابية المشهوره فى مصر طلب اليه الحضور من حيدر آباد الدكن والزمته الحكومة الهندية بالاقامة فى كلكتا وظل فيها حتى انتهت الحركة العرابية فأبيح له الذهاب الى أى بلدة يختارها

فرغب الاقامة فى أوربا وكانت أول البلدان التى نزل بها لندرة عاصمة المملكة البريطانية وقد أقام بها يوماً قلائل ثم ذ يابث أن سافر إلى باريس حيث وافاه فيها تلميذه وصديقه المرحوم الامام الشيخ محمد عبده وكان فى مصر وقتئذ جمعية تسمى (العروة الوثقى) فطلبت إليه أن ينشىء جريدة تدعو كلمة المسلمين وتنفيذ برنامجه فأصدر جريدة (العروة الوثقى) وأسند إلى الأستاذ المرحوم رئاسة تحريرها فذاعت وراجت وانتشرت انتشارا عظيما ولكن حالت الموانع دون نشرها وكان قد صدر منها ثمانية عشرة عدداً حيث أقفلت أبواب الهند فى وجهها وشددت الحكومة الانجليزية فى مراقبتها ومعاقبة من يقرأها .

قضى المرحوم صاحب الترجمة فى باريس ثلاثة أعوام نشر فى أثنائها فى جرائدها مقالات تبحث فى سياسة الدولة العلية ومصر وروسيا وانكلترا وقد عربت جرائد انجلترا كثيراً من هـذه المقالات وجرت له أبحاث فلسفية مع حيال موضوع العلم والاسلام شهد له فيها هذا الفيلسوف بسعة الاطلاع والعلم وقوة الحجة وصواب الرأى ثم سافر

الى انجلترا وبعد ذلك عاد إلى فرنسا وتعرف بكثير من فلاسفتها وعظمائها وكبرائها فأحلوه مكاناً عالياً بينهم وبين شعبهم

ثم عزم على السفر الى بلاد إيران فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك ناصر الدين شاه وكان قد طلب اليه الحضور على لسان البرق ليراه ويتعرف به فأجابه صاحب الترجمة إلى طلبه وفي أثناء سفره تقابل بالأمير ظل السلطان فقابله هذا بالحفاوة الفائقة والاحلال العظيم أيضاً حتى وصل جمال الدين الى طهران فقابله فيها الشاه مقابلة حسنة جداً وأعجب به أيما إعجاب وأكثر من الثناء عليه والمدح فيه حتى في بلاطه وبين أهله وعشيرته وأسند اليه وزارة الحربية تمهيداً لاسناد الصدارة إليه بعد وقت قليل وقد نال جمال الدين المنزلة الكبرى لدى علماء الفرس وأمرائها وأهلها حتى صار منزله كعبة القاصدين ومكانا لاجتماع الجميع يؤمون إليه ليستمعوا ما يلقيه على مسامعهم من الحديث فخاف الشاه وخامره الشك والريب ظنا منه أنه ربما يمتد نفوذ جمال الدين وسلطانه فأظهر الشاه لجمال الدين نفوراً فلما علم جمال الدين بالأمر

ورأى منه ذلك طلب اليه أن يسمح له بمغادرة هذه الديار ترويحاً لنفسه من عناء الأعمال فأذن له الشاه بالسفر فسار إلى موسكو في روسيا فقوبل بالتجلة والاكرام وأكبروا قدره لما سمعوه عنه من علو شأنه وما سبق إلى مسامعهم من شهرته ثم سافر إلى بطرسبورج وهناك تعرف بعلمائها وساستها ونشر في جرائدها مقالات ضافية عن سياسة الأفغان وروسيا والفرس والدولة العلية والانكليزية وكان لهذه المقالات دوي هائل في عالم السياسة واتفق إذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ فسافر إليها جمال الدين وهناك التقى بشاه الفرس في مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فطلب إليه الشاه أن يرافقه فأجابه جمال الدين في دعوته وسافر معه في معيته إلى إيران وهناك أنزله المكانة اللائقة به كأنه نسي هو ذلك الرجل الذي أبغض جمال الدين وخاف سوء العاقبة من التفاف الناس حوله وكأن أوربا قد محت من ذهنه كل هذه الأفكار الحزبية فكان يستشيره في كل شيء فعز هذا على رجال الدولة فأسر الصدر الأعظم

إلى الشاه أن هذه القوانين التى يصدرها بمعونة جمال الدين نافعة للوطن إلا أنها ربما تحول دون نفوذ أوامر الشاه والالتفاف حوله فعول على أن يعيد كرة البغض لجمال الدين فلما رأى منه ذلك طلب أن يسمح له بالسفر إلى بلدة شاه عبد العظيم التى على بعد (٢٠ كيلومتراً من طهران) فأذن له بذلك وتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء والعظماء فصار يخطب فيهم ويحثهم على إصلاح وطنهم وحكومتهم ولم تمض ستة أشهر على ذلك حتى ذاعت شهرة جمال الدين فى جميع أنحاء بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك وأرسل إلى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارساً حتى حدود المملكة العثمانية فعز ذلك على مريديه فى إيران فثاروا على الشاه حتى خاف الأخير على حياته

أما جمال الدين فظل فى البصرة إلى أن نقه من مرضه وسافر إلى لندرة وكان الانجليز قد عرفوا قدره ومكانته فأجلوه واحترموه وصاروا يدعونه إلى مجتمعاتهم السياسية

و ... تعليمه ... حديثه أما هو فكان يحدثهم عن نشأته وتصرفه في ممالكه وما آلت إليه حالته في عهده وكان يحث الانجليز على خدمه وفيه هو كذلك ورد إليه كتاب من لدين همايوني بواسطة المرحوم سفير الدولة العلية في لندن رستم باشا فأجاب جلال الدين معتذراً بأنه في شاغل وقتي في إصلاح بلاده ولكن ورد إليه كتاب آخر فيه ثناء وحض على السفر فأجاب الدعوة برقياً على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان المعظم ثم يعود بعد ذلك وهكذا سافر إلى الاستانة عام ١٨٩٢ فضربت له فيها الاوهمة ما لاقاه من حسن معاملة المغفور له السلطان عبد الحميد خان الثاني له وحفاوته به وظل فيها معززاً محترماً مبجلاً مكبراً حتى دهمه السرطان في فكه وكان ذلك في أواخر عام ١٨٩٦ وامتد من فكه إلى عنقه فظل يعاني الآلام عدة أشهر حتى توفي في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ واحتفل بجنازته احتفالاً مهيباً ودفن في مدفن ... الأقرب ...

المختار من نثره

المقالة الاولى

العروة الوثقى لا انفصام لها

قال الله تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقو وليعلمن الكاذبين)

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا (وللايمان آثار) ثم يحسبون أن الله يتركهم ويدعهم وما يتوهمون ويعلملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأمانى وأنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شىء وهم خلو من كل شىء (ولما يدخل الايمان فى قلوبهم)، إلا أنهم فى حسبانهم لمخطئون * فلن يدع الله المغرور فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الايمان (ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين) و (لئلا تكون للناس على الله حجة) . حسب حكمة نزل الكتب وأرسل الرسل

ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن
يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر أو ظن ليس
له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدى أن المغتر
بزعمه الخائر فى ظلمات أوهامه الذى لا يسهل عليه الإيمان
احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ليس بمعزل عن
المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد
لا يدين بغالب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس إلى
طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه يقول الله تعالى
وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله
واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله
والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم
الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) هذا قضاء
الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم
وأموالهم فى أداء فريضة الإيمان حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون
صدق الله وصدقت كتبه ورسله - إن العقائد الراسخة آثاراً
تظهر فى العزائم والأعمال وتأثيراً فى الأفكار والإرادات
لا تمكن المعتقدين أن يزحزحوا عن أنفسهم مدمو

معتقدين هكذا حكم الايمان فى جميع شؤونه وأموره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله وصفات جليه لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه بها كان يمتاز المؤمنون فى الصدر الأول وكان يعترف بعزتهم وعلو منزلتهم من كان يجحد عقيدتهم لعزة الدين صبروا فى ميدان الشدائد وبتلاوته حتى ظهر إيمانهم ذهبا إبريزا صافيا من كل شيء وأعداؤهم جزاء على ... ما صب الله ... وما أشد نقمته وما أدق حكمته فى ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) نعم ان دين الله خ... العادات وتحمل الصعوبات وبذل الأموال والأرواح ... كل خصر فهو تهلكة بنفسه بعد ... الا فى الايمان فكل تهلكة فيه فهى نجاة وكل ... فى المحاماة عن الايمان فهى ... أبدى وكل شقاء فى أثناء تقوية الايمان فهو سعادة سرمدية المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه الايمان ولا يخشى الفقر وان كان الشيطان يعده الفقر ... فى النفقة لاداء حق الايمان مذبر ولو أتت على كل ما فى أيدى المؤمنين ... مؤمنين حياة وراء هذه الحياة وأن الله لذة

وراء ذاتها وأن له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعاداتها
هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية
من كماله إن الفرار من محذورات في الايمان مجلبة الخزي
لابتغاء ... مصادمة جيش الضلال ... بغت
أقصى ما يتصور موجب لشقاء سرمدى لا سعادة إلا
بسبيل ودون حفظ دين تغير الأعناق ... الايمان فكيف
شقاء وفر ... الأ... لا على دين متحن ...
قوم ... ن نقيم بغير ... الايمان محفوف بالخطر
مكتنف بالمكاره كيف لا و... ما يوجب الايمان خروج
الانسان من نفسه وماله ونهوضه ووصل جميع ذلك تحت
أوامر ربه ن يكون مؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله
أحب إليه من نفسه ... وإحساس ... بنفس مؤمن إنه
في هذه ... عبر سبيل في دار أخرى خير من هذه ... خيرة
و... و... خطوة يخطوها المؤمن ببذل روحه إذا دعاه
داعي الايمان ولا داعي أرفع صوتاً ولا أبين حجة من نداء
الحق على لسان نبيه ... لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً
ولا عذر ... مدمت ... تتشي والعين تنظر واليد ...

ان امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين في كل قرن يدعوا الله المؤمنين الى قوم أولى بأس شديد (فان يطيعوا يؤتهم الله أجراً حسناً وان يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً) * فميزان عدل الله منصوب إلى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى فلايحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح فى مخيلاتهم إن عدل الله يتركهم وما يظنون (كلا إنهم فى كل عام يفتنون) لينظر المفرطون فى دينهم ضناً بأموالهم وصوناً لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين * أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم وبشرهم بعاقبة أمرهم

المقالة الثانية

قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب وتدهش الأفكار ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات وان لم تكن فى أزمنة النبوات ويحسبونها خوارق عادات وان لم تكن من تحدى الرسالات وقد ينسبها الغفل الى حركات الافلاك وأوضاع الكواكب وموافقة الطوالع ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق عجزا عن ادراك الاسباب وفهم الصواب * أما من آتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته قد أناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية يكون بهما مظهراً لعجائب الامور وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم

سريع الحسب * اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى
في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية مايدل على
تقارب العقول بل على استواء المدارك وأرشده الفكر
السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ومنحه
ما يكون به مصدراً لفضائل الاعمال على تفاوت لا يظهر به
الاختلاف بينهما الا لمنظر الدقيق، * هذه وقفة الحيرة *
استعداد فطرى للكمال في خلقة الانسان * مبثوث في كل
فرد لا يتفرد بالفخار ويتناهى بجلائل الآثار وفضل عام من
الجواد المطلق سبحانه وتعالى لا يخيب سائلاً ولا يرد سائلا
اذا صدق القاصد في قصده وأخلص السائل في جده فما المانع
في اخلاد الجمهور الأعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازل
وقصوره عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية وسيقف بهم
اليه مبين لمريدى خصوصاً ان كانت النفوس مؤمنة بعدل
الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات
وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات وتعترف بيوم العرض
الأكبر (يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال
ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) * ماذا يقعد

بالنفوس عن العمل * ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل * إذ
ردت مسببات الى أسبابها وطلبت خلائق من حدودها
ورسومها وجدنا هذا علة أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل
الجبن الجبن هو الذي أوهن دعائم الممالك فهدم بناءها *
هو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها * هو الذي أوهن
عزائم الملوك فانقلبت عروشها * وأضعف قلوب [illegible]
استحصدت [illegible] هو الذي يغري [illegible] خير في وجوه
[illegible] غضبة عن [illegible]
[illegible] يخفف عليه [illegible] مسكنة
ويهون عليه [illegible] يرضى النفس على
تلقي الإهانة بالصبر والتسليم بجبروت [illegible] خسيسة
لا حاجة من منصب أثمر ثم كان يتوهم عروضه عند
تحرك الشجاعة والإقدام * الجبن يبيس النفس عن دون
ما يقرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليه
إلى حين وعار مذلات سهلا وتنغص عيش في مسكنة
[illegible] ونعيم

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارة الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الاعداء ولا ترى الاحباء ونفس لا تصعد إلا بالصعداء وحساس لا يلم به الا ألم اللاء وا هذه حياته أضاع كل شئ فى القناعة بلا شئ وهو يظن أنه أدرك البغية وحصل المنية * (ماهو الجبن) انخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا انه يرجع الى الخوف من الموت * الموت مآل كل حى ومصير كل ذى روح ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل آن ويرتقب فى كل لحظة ولا يعلمه الا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) * يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عن ما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت

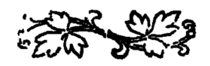
لا جاه نعم يفعل الانسان فيضن مجعله الله واقيا بحياته وهو الشجاعة والاقدام سببا في انفناه * يحسب الجاهل أن في كل خطوة خطراً مع أن نظرة وحدة بين يديه من الآثار الانسانية وما ناله طلاب المعالى من الفوز بمطمحهم وما ذلوه من مصاعب في سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف انما هي أوهام واصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فدهشته وعن سبيل ... صدته ومن كل خير حرمته جبن هو ... نصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتفتك به عوامل ... لانسان وتنهب الامم والشعوب . هو ...

يعبد به عبد الله ويصده عن سبيله هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لاشقاء إلا وهو مبدءه ولا فساد إلا وهو جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة . هذا يحمل الخائنين على خيانة في الحروب الوطنية أليس هو الجبن هذا يبسط الأيدى للأدنياء ... ثم للارتشاء أليس هو الجبن ... يتوهم بعد ...

فتأمل أن الخوف من الفصر يرجع فى الحقيقة إلى الخوف من الموت وهو عين الجبن — سهل عليك أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان — الخبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً ينبغى أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أحوال دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وهم لا يبتغون إلا رضاه — يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) الخ الآيات — الاقدام فى سبيل الحق وبذل الاموال والارواح فى إعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون — لم يكتف الكتاب الالهى بأن تقام

الصلاة و يؤتي الزكاة و يكف الأيدي عن جعل ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون ساقطون عن حفر الدليل فرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق و لعدل لأنه عمده الركن التوحيد الذي لايعتد بغيره عند فقده ولايظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي و بين الجبن في قلب واحد كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الاخلاص لله والتخلي عن جميع ما سواه واستحقار ما عداه المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده البعد عن مفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه * المؤمن من لا يتضرر نفسه لاحدى الحسنيين اما أن يعيش سيداً عزيزاً واما أن يموت مقرباً شهيداً وتصعد روحه في أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء * كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان * لهذا

نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهى عن التباطئ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك وفى الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذاك المعروف والنهى عن هذا المنكر ، زمناً قليلاً ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً فى هذا الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها فى هـذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر * فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون إلا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقوداً و يحفظوا موجوداً وينالوا عند الله مقاماً محموداً



المقالة الثالثة

اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

إن المسلمين لهم شدة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وهم في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض. ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء وهذه الحالة كما هي في عامتهم متمكنة في علمائهم حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسمة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به وعلى جميع من يشركه في دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ

وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لايتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية مارآى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب * المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولاالمختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام * ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والأرواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم * وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان * المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف

من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه
الإيمان وهو هاتف خفي يتأتى له من إيمانه بدينه ومع
كل هذا نرى أمراء هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما
يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم وهل البلوجستان
كانوا يرون حركات الانكليز في الأفغانستان على مرأى من
أنظارهم ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على
إخوانهم والأفغانيون كانوا يشهدون تدخل الانكليز في
بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون وأن جنود الانكليز
تضرب في الأرض المصرية ذهاباً وجيئة تقتل وتفتك
ولا نرى نخوة في نفوس إخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم
بل أسامعهم خبرها من حلاقيمهم إلى الذين حرمت حدقهم
من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن
شمائلهم * تمسك المسلمين بتلك العقائد وحسبهم إياها شرعية
حق في نفوسهم من هذه الحالة التي هم عليها ما يقتضي بعجب
ويدعو إلى الحيرة ويسوق إلى بيان الأسباب نأخذ مجملا منه
إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات
والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعنها

حكم تعدير مقدر العزيز الحكيم لكن الأعمال ... وقويها تعطى ... نسر عليها حتى يصير ماامر عنه بما ... خلق وتترتب عليه الآثار في الأثمها ... نعم إن الإنسان ... سن ... فكر وعقائده لا أن ماينعكس إلى مرآ باعقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شيء يحدث شكراً وكل فكر يكون له أثر في داعيه وعن كل داعية ... عمل ... يعرف من عمل ... الفكر والإرادة ... والانفصال بين الأعمال والأفكار مادامت الأرواح في الأجساد وكل قبيل هو الآخر عماده إن الآخوة ووسائل نسب القرابة صورة عند عقال ولا أثر لها في الاعصاب ولا التحام لولا ما تبعث عليه الضرورات وتلجئ إليه الحاجات من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وعدكرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من النفس مأخذاً يصرفه في آثارها بمية الأجل ويكون انبساط النفس بعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جار يامجرى الوجدانيات الطبيعية كالاحساس بحرارة العطش والري والتشبع بل اشتبه

على عصر ناصري فهذه ... فهو ... ضد السمى ...
ثبوتها و... وتستضرورت حياة في وقت من الأوقات
إلى من يتمكن ... وتؤكد ... ووجد ... حب ...
من يصاهره في ... نسبه وحاجته ضرورة في ذلك ذهب
... الرابعة نسبية و... يبق منها الضرورة في ...
تجرد مجرد محفوظ من ... ومقر ...
... ذكروا ... قوي ... به ...
يكون ... في معتقدات ... في ... لا سيما
من حيث ... بعض ... يصحب ... ملكي
مجيء بضرورة ... نفع ... خارجه
و... عليه والعود ... عليه ... حتى ... هيئة
... وتشكل من تشكله في يكون ...
يعد في صور ... في ... عند لا ...
كم قدمنا ... صورة ... فيها عين
حكاية صورت سبب في ... فيه
في ... في ذهنه ... في ... صورة ...
وهو ثبت ... في عقد ... من جملة ...

المسلمين في الاغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل * والعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين أفراد العامة بدواع خاصة كصداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر مما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم بل لا أنساب بينهم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كانه كون برأسه * كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين * أليس بعجيب الا تكون سفارة للعثمانيين في (مراكش) ولا لمراكش عند العثمانيين * أليس بغريب الا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق * هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبل على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد

الاطفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون مواقع أفكارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعى إلى الأسف و انقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته لكنه لضعفه لا ينبعث على النهوض لمعاضدته * كانت الملة الاسلامية كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من عوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء تكون على حده وتضمحل هيئة الجسم * بداءة هذا الانحلال و الضعف فى روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن مرتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم فكثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يبق له مثيل فى دين من الأديان ثم انشقت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام خلافة عباسية فى بغداد وفاطمية فى مصر والمغرب وأموية

العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع من أحكام وبغيرها مما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فهو بدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل نشرها بين العامه وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذه من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل * الا اننا نأسف غاية الاسف إذ لا تتوجه خواطر الامراء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت اليها في هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة ورجوا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم فقد درستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه وما هو بالكثير عليهم أن يمتدوا بالمساعدة إلى من يبعد عنهم ويصحبوا الالفة من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود عليهم وعلى ملتهم بالفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضه وحازوا سعادة وارتقوا بالحق ولا مال مقبلة وإلى الله المصير

المقالة بعة

«واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم»

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين قزان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء قطراً متصلة وديارا متجاورة تسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب * أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا لشوكتهم كرة الأرض الا قليلاً ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم صياصيهم وقلاعهم متلاقية ومنائرهم ومغارسهم فى سهولهم (أرضيهم السهلة الواسعة) وحزونهم (الأرض المنحدرة عن جبال) زاهية مزدهية بأنواع النبات حالية بأصناف الشجر يربيها صنع أيدى المسلمين ومدنهم كانت قائمة مؤسسة على متن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفخر بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال لهم المكان الأعلى فى نفوسهم

ولقد كان في نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابي والرازي وأمثالهم وفي الغرب ابن مجة وابن رشد وابن الطفيل وأمثالهم وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقاتهم * كان خليفتهم العباسي ينطق بالحكمة فيخضع لها فغفور الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل (محمود الغزنوي) و(ملكشاه السلجوقي) و(صلاح الدين الأيوبي) وكان منهم في المشرق مثل (تيمور كوركان) وفي المغرب مثل السلطان (محمد فاتح) والسلطان (سليم) والسلطان (سليمان العثماني) وأولئك رجال فضلا ولا يطاول الزمن ذكرهم ولا يمحو أثرهم * كانت أساطيل المسلمين سيدة لا تبارى في البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي وهذه الكلمة العليا في ثلاث البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون بالملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غالبهم ومسيطرون يوم هم يملؤون ثلث الأقطار التي ورثوها

عن ... وعديدهم لا ينقص عن مائتى مليون وأفرادهم

في كل العصور أشربت قلوبهم من عقائد دينهم سحق

وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم مع ذلك أشد الناس

ازدراء بالحياة وأقلهم مبالاة بزخرفها بعض ما جمعهم ... ..

بمحكم آية ... الناظرين بالبرهان على عقائده ويعيب

الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ويدعو إلى ... ..

وعقائد ... ... في ... ... خلق ... ..

في نفوسهم ... ... بأصول دينهم ... وعقلا و...

ذهنا و... ... لنيل الكمالات الإنسانية و...

في الاستقامة في الأخلاق ... ... لأنفسهم ...

الاختصاص بالشرف وموعودون به على لسان كتابهم ...

من ... ... على شؤون العالم أجمع ... ...

لا ينعنون بسلطة غيرهم عليهم ولا يحوم فكر واحد منهم

أن يخضع ... سطوة من سواهم ... ... من ...

ما بلغت ... ... من ... ... يحسب

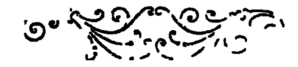
كل واحد منهم ... سقوط ... من ... ملته تحت سطوة

مقبوض لنفسه ... ... به ... ...

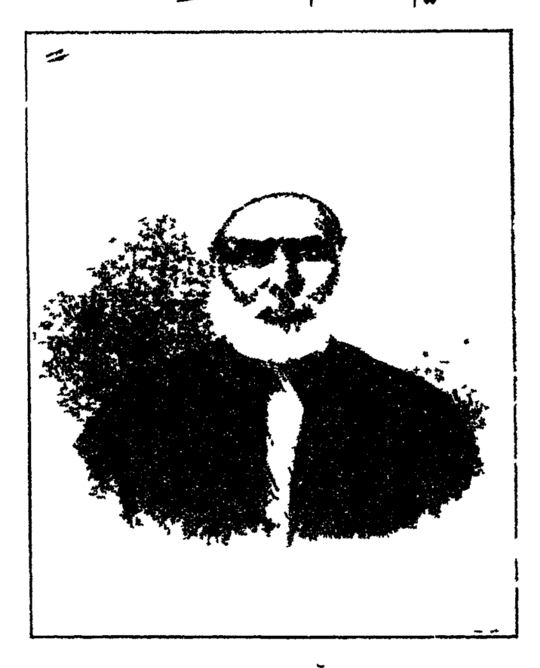
ولا يجد عنه مسليًا وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم اليها دينهم ونالوا منها النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل ذاك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن * ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها أساتذة للعالم وأخذت ممالكهم تنتقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم ويعمل على الاستئثار بالحكم عليهم الذى يؤدى ولا شك الى المساس بدينهم واستقلالهم *هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون * هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون * هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمتهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . لا . لا * ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى إرادتهم وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم * ثم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم ولضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف

سلاب الملك فيهم لأ ينا أزلا جنه اسه
في دينهم فتعدد الملك عليهم كتعدد لرؤسه في قبيلة
وحدة ولسلاطين في جنس وحد مع تبين لأغراض
وتعارض الغايات فشغلوا أفكار كافة بتظاهرة كل خصم
على خصمه وألهوا العامة بتهيئة وسائل الغلبة وقهر بعضهم
لبعض فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات
الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا
عن التقصير في طلب ما ينالوا منها والانحسار دون الترقي
في عواليها ونشأ من هذا ما تراه من الفاقة والاحتياج وعقبه
الضعف في القوة والخلل في النظام وجاب تنازع الأمراء
على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فهو بأنفسهم
عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم . هذا كان من أمراء
المسلمين مع ما فيه الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في
ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ولكن ضرب
الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الأزمان وتمكن
في طباعهم حرص وطمع بطل فقلبوا مع الهوى وخلت
عنهم غيرة المجد مؤثر وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

ومن يتبع هذه الأشياء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة المعاش مدة من الزمان واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ولجؤا الى الاستنصار به على أبناء ملتهم ستبقاء لهذه الفسيحة الباطلة والنعيم الزائل



حكيم الاسلام و فيلسوف الشرق



المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده

٣

المرحوم
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

ترجمته

ولد الفقيد الكريم من أبوين فقيرين من أهالى محلة « نصرة » بالغربية كان يضرب بها المثل فى الورع والشهامة واكرام الضيف

ولد رحمه الله عام ١٨٤٥ فلما بلغ السابعة من عمره ظهرت عليه علائم النجابة والذكاء فلم يشاء أبوه له أن يكون فلاحاً كأخوته بل شاء أن يعلمه فادخله إلى كتاب فى القرية فاختلف اليه الفقيد مكرهاً ولم يدع أحداً من أهل القرية إلا توسل به الى أبيه أن ينظمه فى سلك إخوته فلاحاً فكان يأبى عليه ذلك ويصر على تعليمه إصراراً . وكانت النتيجة من هذا وذلك ان الفقيد رحمه الله لبث بهذا الكتاب ثلاث سنين لايحفظ مما يلقى الفقيه حرفا

وفى عام ١٨٤٨ أدخله أبوه الى الجامع الأحمدى فلبث به ثلاث سنين أخرى كانت النتيجة منها مثل الأول . فلما

أعي أباه أمره أرسله الى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين ولا يدرى مما يلقن شيئاً

قال الأستاذ فى تعليل ذلك ان الذى كان يعوقنى عن تفهم المقصود من هذه الشروح والمتون ثلاثة أمور . الأول رغبتى فى أن أكون مثل اخوتى فلاحاً وعدم وجود الوسائل التى ترغبنى فى العلم . والثانى خلل نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فاحسبه يتكلم بلغة أجنبيه . والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معدهم بالأغذية الضارة مما يكون منه الاعتلال فى الجسم والفكر معاً

فلما لم يجد الاستاذ مناصاً من إرادة أبيه خلا بنفسه واجتمع بفكره وذكائه فهان الأمر بعد ذلك عليه وأصبح ما يحصله رحمه الله فى يوم واحد من هذه الدروس المعقدة المشوشة مثلما يحصله سواه فى عام أو عامين . ومما يروى عن ذكائه أنه لم يتم شهر فى درس كتاب الكفراوى فى النحو حتى بدا له شىء من غلط الكتاب وتناقضه فى بعض المواضع فنبه شيخه الى ذلك فاعترف معه به ولكنه قال انما ندرس هذا الكتاب تبركا

ثم جاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر فاجتمع به الفقيد وأخذ عنه كثيراً من فلسفته وعلمه والسيد جمال الدين يقول عنه أنه أنجب تلاميذه وأنه لمصر أقوى من أسطول وأعزمن جيش . وقدلبث جمال الدين بمصرعشرسنين فكان الأستاذ ساعده الأيمن لا يكتب السيد موضعاًعلمياً إلا بروح الفقيد وقلمه ولا يجادل أحد الا فلسفياً الا كان فيه شيء من ذكائه وفكره ولما طرد السيد جمال الدين قال «وهو فى سجن السويس منتظراً الباخرة التى تحمله منفياً» أنى تركت الشيخ محمد عبده وكفاه لمصر عالماً

وكانت أول الوظائف التى تولاها تحرير الوقائع المصرية ثم عين مديراً للمطبوعات المصرية ولما عزل اسماعيل باشا وتولى رئاسة النظار رياض باشا قرب الفقيد اليه واتخذه مستشاراً ثم كان ما كان من الثورة العرابية فبذل جهده فى اقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله

ثم هدأت الثورة بعد الاحتلال فاتهم الفقيد أنه كان من رجالها فنفى إلى الشام فلبث فيها عام ثم دعاه السيد جمال الدين الأفغاني إلى مدينة باريس فأصدر بها جريدة (العروة الوثقى)

ثم عاد الى مصر بعد أن تبينت براءته الحكومة المصرية فعين قاضيا جزئياً في المحاكم الأهلية ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية. أما أعماله النافعة فكثيرة لا يحيط بها بيان نذكر منها تدريسه القرآن الشريف بما لم يسبقه اليه أحد حتى كان شرحه له شرحاً علمياً عصريا خالياً مما حشاه السابقون. ومنها أعماله في مجلس الشورى وهي كثيرة حسنة هذا عدا الافتاء وتأليف الذي منها رسالة التوحيد وتفسير جزء (عم) وتعريب رد على الدهريين. ولم يقف عند هذا الحد بل جعل من الأعمال النافعة وجه نحوه شرف في الأزهر فسعى مقتدر على اصلاحه وكان عرض ساورة وعمل بشيئة تشروع مدرسة لتخريج قضاة الشرعيين ثم انه كان فوق هذه الاشغال كتب يكتب بمجلات بعض موضوعات ادبية وعلمية

الصدر كريم النفس . فما قصده ذو حاجة إلا سعى له سعيها حتى يقضيها له وما أساء اليه إنسان إلا اجتهد أن يقابل الاساءة منه بالاحسان فقد كان أنجال المشايخ فى الأزهر يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ فى ذلك غبناً للعلماء لأن هذه المرتبات إنما هى وقف عليهم فأعاده الاستاذ اليهم عوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه لهم بسعيه فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعى عقيب اعتزاله الازهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين فأعظم بهذا كرماً وحلماً

ولقد كان رحمه الله وطنياً بحقيقة معنى الوطنية وكان لا ينىء له عزم فى كل أدوار حياته عن ترقية الامة وإصلاح شؤنها . وله حسنات غير ذلك كثيرة تدل على أن الرجل رحمه الله كان كبير الهمة واسع العلم شديد الغيرة على الأمم

المختار من نثره

انتشار الاسلام

بسرعة لم نعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد : وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل . أوذى النبى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من عقاب لولا عناية الله . وعذب مستجيبو

له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة . غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب مافسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على أيدى الأطباء الحاذقين : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون . »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فمازال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للأغنياء ولا ناصر له إلا الله حتى ميز بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الأهواء . حتى ظفر بعزه ونعز بالنعمة . وقد وجد بأرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم صولة وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكروه ومع ذلك [illegible] بهم السعى نجحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام فكان اتحاد العربية الى وحدة لم يعرفها العرب ولم يعهد لها نظير في ماضيهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والروم فهزءوا وتمنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث في حياته وجرى على سنته الائمة من بعده طلباً للأمن وابلاغاً للدعوة فاستغلوا ضعفهم وفقرهم يحسبون الحق على يديهم وتم لهم به على ثلاث الأمم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبتها وعددها فظفروا منها بقدر معلوم. وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق والبر وأقروهم بقدر [illegible] على دينهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين. وشرطوا حمايتهم عليهم [illegible] يمتنعون منه [illegible] و[illegible]. وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزية [illegible] من [illegible] على شروط معينة.

كان [illegible] من غير [illegible] [illegible] بعد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام إن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعيهم على بث عقائد بين المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسبتهم في المعاملة . وشهد العالم بأسره ان الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفاً .

رفع الاسلام ما ثقل من الاقوات ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها وانتزاع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه الا بين يدي قاضي شرعي باقرار من المسلم الجديد انه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الامويين إنه كره أعمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك الاعمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف عن خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من

الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا . اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم إلى بلاد الاندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم من غزوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى وثنيات الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه . فما الذى قلب أهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته ما يبذله العرب أنفسهم :

ظهر الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على جادة الحق وحق لمن نـ[illegible] شكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله [illegible] بر عليهم

واسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد في مجاحدته فتقبلوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيرا ونعمة : لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق . رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الأعلى ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله وثوابه حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزعت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهي ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة .

[illegible] هذا الدين عندهم قرءوا القرآن ونظروا

فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانو عليه .

كانت الامم تطلب عقلا فى دين فوافها . وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغبتها :

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لايقام وزن لشؤون الادنيين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير — وكان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً — فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن ابى طالب — وهو

من نعلم من هو — أمام القاضى ويستوقفه معه للتقاضى إلى الى أن قضى الحق بينهما . هو وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الافكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعدان يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرحل . فاذا انقطعت أسباب الشعب تراجعت القلوب الى سابق ماالتقته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه ، لاسيف وراء ولاداعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ماأودعه من قابلية من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا نعلم ان سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على

الاعتقاد به من كل ملة انما كان بسهولة تعقله ويسر أحكامه
وعدالة شريعته . وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وتزداد
منه ماهو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى
الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة . ودين هذا شأنه يجد الى
القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة
ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون
من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا
كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشأه
الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض اطراف
الارض الى اليوم .

قال من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام
لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح
المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ،
يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه
وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم .

ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت
سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة

فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليـه .

لوكان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لهـا . وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجئ الاسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشر قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن : هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيره يفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية . علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الأرض بمدنيتها . زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال بين الحق والباطل . والرشد والغى قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ريحاً إلى أرض جدبة ليحيى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينتقص من قدره أن أتى فى طريقه عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به ·

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه . اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراءه لكن الله بالغ أمره ، فتحدرت إلى

ديار الاسلام أمم من التتار يقودها جنكيز خان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينًا وحملوه إلى أقوامهم فعمهم ما عم غيرهم . جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها واستمرت المجادلات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد . جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين . استقر المقام

بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع . فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لا تصب مستقر الحقيقة . ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كل ذلك فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها . هذا إلى ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل

به فى العمل تتزايد بين الغربيين ونهضت لهم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصايته فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته

وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الاسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه إنما هو دينه لا يختلف عنه إسماً ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الاسلام غافلة عن عقائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم : وما بيناه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم وإلى الله عاقبة الأمور .

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون . إذا كان الاسلام إنما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق . وقال فى كتابه « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الاسلام موحداً ، فما بال المسلمون عددوا ؟

إذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشترط عليه فى ذلك سوى محافظته على عقد الايمان . فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع . ما بالهم وقد كانوا رسل محبة أصبحوا اليوم [illegible]

يتنسمونها ولا يجدونها ؟ مابالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل وأصبحوا مثلاً فى القعود والكسل ؟ ماهـذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما يدعوه وبين مادعاهم إليه فتركوه ؟

إذا كان الاسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟

إذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرآونه إلا تغنياً ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبه ولا تظنيا ؟

إذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوها الى أغلال وأى اغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين فى تشوف إلى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قرونا فى استعباد الأحرار ؟

إذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق

والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه

إذ كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن و النفس والبدن

إذ كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وأن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد في ذلك تشديداً لم يشدد في غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بالحق ولا يعتصمون بالصبر ولا يتناصحون في خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذاً وصاروا في أعمالهم أفراداً لا يحس أحدهم بما يكون من غيره حتى كأنه ليس منه ، وكأن لم تجمعه معه صلة و تضمه بيئة

وشيجة مابال الابناء يقتلون الاباء وما بال البنات يعققن الامهات . أين وشائج الرحمة .أين عاطفة الرحم على القريب. أين الحق الذى فرض فى أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون مابقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام اضاء الغرب كما تقول وضوؤه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله فى ظلمات لايبصرون . أصح هذا فى عقل أو عهد فى نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هـذا الدين أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه وسموا أنفسهم بتهم حفاظ أحكامه وقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كانه فى ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس . ومن غرته

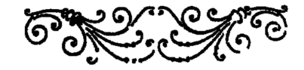
نفسه بأنه على شيء من الدين وانه متمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة : أليس في هذا مايشهدالله وملائكته والناس أجمعين على أن لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء في الايراد قليلا من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات . ولكن قد أثبت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم . ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميع أمره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الأمم . فذلك هو الاسلام .

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل . من أحسن في استعماله و الاخذ بما ارشد اليه نال من السعادة ما وعد الله

فى اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الاعمى إنكاراً ولا الاصم اعراضاً . وغاية ما قيل فى الايراد أن أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله . وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .



الشيخ محمد عبده والنياشين

حدث سنة ١٨٨٩ — أي منذ ٣٥ سنة — أن حكومة أسوج ونروج أهدت وساماً الى المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي في ١٢ يناير (كانون الثاني) من السنة المذكورة جاءني وأنا في بيروت كتاب من المرحوم الشيخ محمد عبده ولا يزال محفوظاً بين أوراقي. وفيه رأي الامام رحمه الله في هذه النياشين فأنا أنشر الآن فقرة منه مأخوذة عن خط يد الاستاذ كما يأتي:

عرضوا سلامي على حضرة الشيخ الجليل الشيخ ابراهيم افندي اليازجي وقولوا له قد كنت هممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنروج دليل على عرفان ملك العلم لفضيلته في الفضل لكني بعد ذلك رأيت أن هذه العلائم تناط في هذه الأيام بصغار الناس قبل كبارهم ويعنى بتعليقها على الفقراء منهم دون عقلائهم فكففت عن ذلك صوناً له عن درجة متى في منزلة من يعنون بزينة غير الفضل أو حلية غير حلية الكمال فأبلغ سلامي الى ... المحترم ... صورته:

«عزيزى حضرة الاديب الاريب سليم افندى سركيس حفظه الله . وصلتني من لدنك رواية . . . وقرأت معظمها وان شاء الله آتى على آخرها وقد أجاد منشؤها ومشى مشية مشاهير الممثلين فيها ولولا ضيق وقتي لفصلت رأيي فيما حوته . ونشرت مذهبي فيما طوته . واني لك من الشاكرين على عنايتك بارسال مثل هذه الظرف الى . . . ولا تجعلوا ابطاء كتبي سبباً فى انقطاع كتبكم . (واعرضوا سلامى على حضرة الشيخ الجليل ابراهيم افندي اليازجى وقولوا له قد كنت هممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنرويج دليـلا على اعتراف ملك العلم لضريبه فى الفضل لكنني بعد ذلك رأيت أن هـذه التمائم تناط فى هذه الايام بصغار الناس قبل كبارهم ويعنى بتعليقها ضعاف العقول منهم دون عقلائهم فكففت ذلك صونا له عن توهم مثلى فى مسه انه ممن يعنون بزينة غير زينة الفضل أو حلية غير حلية الكمال وأعيد رجائي فى مواخرة كتبكم وصلتنا برسائلكم » الخ

محمد

مصر ف ١٢ ينير سنة ١٨٨٩

«رسالة لصاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده»

«الى حافظ بك ابراهيم معرب كتاب البؤساء يشكره»

لو كان بي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه . أو أحمدك لرأي لك فينا أبدعت في تزيينه . لكان لقامي مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك . ويجري في التشكر الغاية كما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بعرفك [1] عندنا . بل عممت به من حولنا . وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا . زففت إلى أهل اللغة العربية . عذراء من بنات الحكمة الغربية . سحرت قومها . وملكت فيهم يومها . ولا تزال تنبه منهم خامداً . وتهز فيهم جامداً . بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة . وتقوم من نفوسهم ما عوزت فيه الاسوة [2] حكمة أفاضها الله على رجال منهم فهدى إلى تقاطها رجلا منا جردها من ثوبها الغريب . وكساها حلة من نسج الاديب . وجلاها للناظر وحلاها للطالب . بعدما صحح من خلقها . وزان من معارفها حتى ظهرت محببة إلى القلوب رشيقة [3] في مؤانسة البصر . تهش لفهم . وتبش لعقل

(١) يستمع ريح عبية (٢) بكسر وضم القدوة (٣) خفيفة

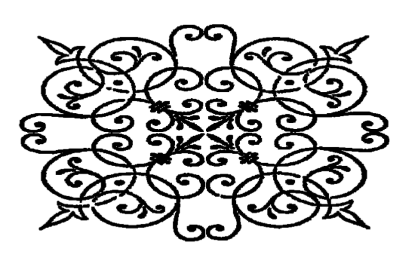
المذوق وتسابق الفكر إلى مواطن العلم فلا يكاد يلحظها الوهم الا وهى من النفس فى مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ما سلبه المعتدون عليها . من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه . . . أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمريد بعده . ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده . ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع . ومعنى أنفع . ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه فتكون قد أحسنت الى الأبناء . كما أجملت فى الصنع مع الآباء . وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من العجمة سوى ما هو فى الأسماء أسماء الأماكن والاشخاص لا أسماء المعانى والأجناس ومثلى من يعرف قدر الاحسان

اذا عم . ويعلى مكان المعروف بذا شمل ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى

ولو أنى حييت الخلد فرداً　　لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت على[1] ولا بأرضى　　سحائب ليس تنتظم البلادا



فقيد القضاء والعلم



احمد فتحي زغلول باشا

٤

فقيد القضاء والعلم

المرحوم

احمد فتحى زغلول باشا

المختار من نثره

عوائد الافراح

إن حرص الانسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والاجلة حمله على أن يستبشر لخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء فعلى هذا يكون سرور الانسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمراً طبيعياً لا اختيار له فيه فلا مجال للتنديد أو الثناء على مايختلج فى الفؤاد ويظهر على الجوارح فى السراء والضراء إذ لا يعاب على الانسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والارادة ولأجل هذا نجعل كلامنا الان متعلقاً باختياراته فى هذين البابين ليصادف النهى والترغيب موضعاً فنقول

ترى الناس على اختلاف مواقعهم فى المديريات والأقاليم متعودين في الأفراح أمورا كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة ماجاء من أحكام الشريعة ولنأت على بعض مافى حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير فى جانب مرتكباتهم التى ضيق صدر الانسان عن سردها لأننا اذا تتبعنا مايفعل قبيل

زدف العروسين إلى مابعد الدخول نجد أموراً كثيرة نجهل
بحقيقة مبدأ ظهورها وعلة تداولها كالمباصة وحل الدكة
وإزالة البكارة بالاصبع وصلاة ركعتين وقتئذ على قميص العروس
وأن يكون بغير وضوء) وبيان ذلك ببعض التفصيل

أن أبوي البعل هم الذين يختاران في الغالب زوجة ابنهم
غير ملاحظين في شروط انتقائها إلا أن تكون من عشيرة
تعدهم في الثروة والصيت وتزيد عنهم فيما يدون فخرو بذلت
سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خاشة لذات قبيحة الهيئة
وأكرهوا الولد على قبولها بدون أن يتحد معهم مقصداً ولا يخفى
ما في ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معاً . ويدفعون من الصداق
ما يرضى أبويها ويبو...ديناً باهظاً وكلفهم حملاً ثقيلا . وإذ
في وقت الدخول يتوجهن نسوة ورجال عديدون من أقرباء
الزوجة إلى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من ... و...
... و... وغيره من غير أن تأخذه شفقة على عوائد
أهل منزل ... ليمدوه ... الزفاف . وبعد
ذلك إذا أراد الزوج أن يأتي إليه بخطوبته تتبعهم جموع
كثيرة فئة تضرب بالسلاح . وقوم يعبون ... . وجماعة

تتسابق على ظهور الخيل ولفيف من النسوة والفتيات يترغن بأصوات يخالها السامع أنها منبعثة عن متوحشات أفريقيا الجنوبية وهذا مع اختلاط الذكور بالأناس والصغار بالكبار حتى إذا جاؤا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التى هى فيها صعوبات أخفها تمنع أخيها أو خادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود وكذا يرضى جميع خدم أبيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) وأما والدة الزوجة فان كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مضارعة لكسوة عروسه وإلا ردت اليه وطولب بأثمن منها هذا وقبل أن نخرج بالعروس الى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم التى تزف فى مسائه إلى وقت الزفاف فنقول :

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتى الماشطة وتخضب قدمى العروس وكفيها بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص

رقيق محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت فى الترنمات واللعب فان حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف وفى هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويدرن بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها توتة وكلما مرون بباب منزل وقفن قليلا فتخرج من فيه من النساء وتقابلهن بالزغاريد وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتى فى المنزل أجملهن ذاتاً وبدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء فتتقاطر المدعوات أفواجا إلى بيتها وكلما دخلت منهن واحدة وضعت بين يديها ما أتت به من النقود وهذا هو المسمى (النقوط) ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس

نعود على بدء — حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية ويعلو صوت المغنيات ويشتد رعد الطبول وتنتشر الغوغاء ويتصاعد الغبار المنبعث عن حوافر الأفراس المسابقة على وجوه المارة بالموكب وثيابهم. ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من

الازدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج سائق الجمل المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموحه وتدخل العروس وأثاثاتها إلى منزل العريس وبعد ذلك يأخذ فى زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه خلا أنه لا يحمل على جمل بل يمشى راجلا وأمامه المدففون والزامرون ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا المذكرين (أبناء الطرق) بدلا عن الزامرين والمدففين — فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخرفون كثيراً من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب . هذا فضلا عن كون كثير من النسوة والأطفال يقطعن صفوفهن لشدة الزحمة حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العرس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنين معها على الأقل غير القابلة فيفترش قميصها ويصلى عليه ركعتين والغالب ان تأديتهما تكون على غير وضوء . وإذا نهض إلى فض البكارة ما نعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا قبل أن يحل رباط سراويل العروس

هذا مايدعى (حل الدكه) وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة في تنجيز فض البكارة ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك وإن تراخى ولو قليلا أخذ في التنديد عليه فيفض بكارتها بأصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفاً فتنوب القابلة عنه في ذلك الشيء قبيح لا ترضيه الشريعة ولا يقبله الذوق ! وبمجرد خروجه من القاعة تتدفق النار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل النساء العديدات عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويدرن حول البلد مرة أو مرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن في طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع (بيضتي نتش يعروسه) ومعناها حبذا بنت من عروس لم تدنس عرض أبويك ومن هذا الدم الذي نحمله بين أيدينا يمكن عي

أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفا بهذا) وبعد ذلك يحفظن هذا القميص فى منزل أبويها لا يسمحن بغسله إلا بعد شهر على الأقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها

وأما الزوج فانه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة إليها ثانية إلا قبل الفجر ثم مع ذلك يجب أن يبكر فى القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام فى هذه المدة تأتي إليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته أو الاولى يدفع اليه كل واحد قيمة ما أخذ منه فى أفراحه السابقة وبعد هذا ينتهى الفرح ويذهب كل واحد من الناس إلى عمله حتى العروس

تلك بعض عاداتنا فى الافراح حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شوارع المدن والبنادر وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و(مصاطبها) يقوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعلموا

آن فض البكارة بالأصبع وكشف العورة بحضر جمع من النسوة أمر منكر فى الشرع ومستقبح بالعقل وإن القابلة تستحق التعذير والتأديب على النظر إلى عورة غيرها فضلا عن أن تزيل هى غشاء البكارة بنفسها وكأنهم ذهلوا عما ورد فى الشرع وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة هذا إذا لم يعتقد حل ذلك وإلا فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهو العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء

وبالجملة فان كثيراً من العادات التى شرحناها لك إن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلى بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وأقل من ربوعهم بدر العلم فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضار

نعم اننا نعترف بأن كثيراً من عادات الأفراح السابقة قد درست مراسمها وأن النبلاء فى القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئاً فشيئاً وإن البعض منهم قد

قدر على إزالة معظمها إذا عمل فرحاً فى بيته ولكن ذلك
تقليل وهذا التهذيب لا يكفى بالنسبة لحالتنا الراهنة فإن
قطرنا الآن يحسب فى عدد البلاد المتمدنة لا سيما وقد ملأته
الأغراب والمأخوذ من الأمم العريقة فى التمدن فمن العار
أن يرونا مساوين فى العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم
حكم شرعية ولا يشمو رائحة المعارف ولا تنور بصائرهم أشعة
العلم فيرمونا بالجهل وينظروا الينا مستهزئين ونحن لا نقوى
على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معاينة ، وأما تنزه
أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنواناً لأقليم يحتوى
على الملايين من النسمات على أنهم وإن خلعوا بعض هذه
العادات لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم
الاسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة فى مالا
يعود بطائل مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين
لكانت رأس ما يضمن لهما حسن المعيشة إن أحسنا فيه
التصرف فهذه العوائد الجديدة ليست أقل فى الفساد من
تلك العوائد الوحشية أصلح الله حالتنا آمين

فوائد المصاهرة

لايخفى ان أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا الى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة تلتحم به العائلات متباعدة في النسب وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد فقد حرم الله على الرجل أن يتزوج بأم زوجته أو بأنثى من أصولها وفروعها كما حرم عليه أن يتزوج بأمه أو بأنثى من أصول نفسه وفروعه وكذلك حرم على زوجته أن تتزوج بأبي من أصوله أو فروعه فجعل كلا من الزوجين بمنزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة الى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه فهذه حكمة بالغة ومن شرعنا برهانا واضحاً على أن اتصال احدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية في الأحكام والحقوق والاحترام وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الانساني ولازم لرابطة القرابة النسبية

بالطبع

فاننا قد ذكرنا فى جملنا السابقة أن حكمة الزواج كما نص عليه علماؤنا إنما هى حفظ النوع ووقاية الوجود البشرى من خطر الفناء والزوال وبينا ان هذا إنما يكون باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر وتوجههما معاً إلى غاية واحدة وهى حفظ أنفسهما وحفظ نسلهما وإعداد جميع مايلزم لوقايته وانمائه وإبلاغه الحد الذى يستقل عنـده بالسعى فى حفظ وجوده ويطلب من أسباب بقاء النوع ماطلبه والداه فمن كانت له إبنة وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده وقضت سنة الله فى خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس فبمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة وحيث أن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به فمن الواجب عليـه أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسه وتكون عوناً له على سعادته لتتصل بها سعادة ابنته وهكذا كل من ينتسب اليها بنوع من القرابة فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها مثل ماهم عليه بالنسبة اليها فلو سعى أحد منهم فى تكديرها لامحالة

وهكذا يجب على نفس الزوج وأقربائه لنفس الزوجة وأقاربها مثل تلك الواجبات فيلزم أن تكون المصاهرة سبباً حقيقياً فى ارتباط العائلات توجب على كل من العائلتين للأخرى مثل ماتوجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للأخرى وعلى هذا جرت عوائد الأمم التى كنا نسميها وحشية فى الأزمنة السابقة ولا تزال عوائدها على ذلك إلى هذا الوقت فى الأقطار التى لم يشرفها اسم التمدن فلا تصاهر قبيلة أخرى إلا اذ أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد تكون به كل منهما عوناً للثانية على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين وعداوة تمكنت فى نفوس جميع أفرادهما أزمنة طوالا ثم تلو مفارقة الحروب وكلوا من مقارعة القتال وطلبوا الراحة الدائمة والسلم المستمر لم يجدو وسيلة تقطع عرق العداوة ويستبدل برباط المحبة الا أن يتصاهر القبيلتان فتصيران كذى نسب واحد ويتناسى بذلك ما كان من أمر العداوة

وهكذا كانت السنة فى البلاد المتمدنة ولم تزل عليه

إلى اليوم يعدون المصاهرة علاقة تامة من علائق القرابة حتى أن الملوك تتخذها واسطة سياسية لاستمالة كل من الدولتين إلى الاخرى فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها حتى عدت رابطة بين الامم المتنافرة كما تقتضيه الطبيعة وتشير اليه الشريعة

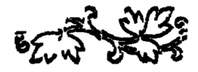
غير أن جميع هـذه الفوائد الجليلة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى عقد الزواج والمصاهرة انما تتوفر للانسان يتمتع بها إذ روعى فيه حكمته الاصلية واتبعت فيه الاصول الشرعية وعلم كل من الزوجين علم اليقين انه لم ينضم إلى الآخر إلا ليكون ركنا من أركان سعادته وعونا له على البلوغ به حد الكمال وهذا إنما يكون إذا حسنت تربية كل من الذكر والانثى وتحلت نفوسهما بالفضائل وعقولهما بالمعرفة الحقة حتى عدوا لذة الاجتماع وسيلة وطريقة الى ذلك الخير الكلى أعنى التعاون والتعاضد على حفظ الذات الشخصية والنوع الكلى فى حفظ الذرية فان هذا التصور يستدعى نظراً عالياً وتطلعاً لغاية كلية تفنى عندها جميع الغايات الجزئية فتتوجه همة كل من المزدوجين الى جانب المصالح

ودرء المفاسد وعلى ذلك تكون غرائم لانسباء و لاقرب
نكل منهما مراعاة لغاية المحبة الرحمية عينها كما بيناه ولا
نكن اذا كانت أهالي البلاد منصرفة العقول عن رعاية
حكم الالهية قصرة الأذهان فلا تنصر في نفذ الذوقتية
الآتية . رأيت أسباب كلية تنقلب عندها الى أسباب عداوة
ونفور ألا ترى أن المصاهرة التي وضعها الله من قوى أسباب
لارتباط و نزلها منزلة النسب كيف صارت عند غالب الناس
في بلادنا سببا لعداوة و التقاطع الشديد و السبب في ذلك
قصور التربية ونقص العقول فقد يتزوج الرجل من عائلة
فتكون عند الزواج وقبله بقليل عادات محبة أكيدة
وصلات الوداد نامية حتى اذا مضى بعد الزواج مدة غير
بعيدة رأيت نوعا من مناقشات يبدو ويظهر غالبا بين أهل
الزوج وزوجته فتتخذ هذه المناقشات مأخذا من قلب
الزوجة بما تسوء معاملة أهل الزوج حقيقة فان كان الاول
فهو من قصور التربية ونقص الفطرة وان كان الثاني فهو
من حماقة الأهل وفساد فطرتهم وعلى كل حال فتى وصل
خبر ذلك أهل الزوجة أخذوه فتوبيخه ... خدمه ...

قلبهـا وهـكذا يتزايد النفـور حـتى تنقاب تلك المودة الاولى بمـداوة تقضى على كل من العائلتـين المتصاهرتين بالسعى فى كيد الاخرى ونكبتها وهكذا لو سرت فى أطراف بلادنا خصوصا فى الجهات الريفية لافرق فيها بين الاوساط وذوى الشرف لرأيت هذه الحالة غالبية فـكأن من يريد المصاهرة يطلب أن يتخذ لنفسه أعداء ومباغضين واننا لا نتأسف فى ذلك على ما يكون بين العائلات أو الاشخاص من العداوات والمنافسات اذا بقى ضرره قاصراً على ما بينهما من المصالح الجزئية ولـكن الضرر الكلى هو ان روح العداوة متى نفث فى روح الاشخاص وفشا فى نفوس العائلات تعدى شره الى المصالح العمومية وتوجهت نفوس الافراد الى حب الاختصاص بالمنافع وانصرفت الهمم عن وجهة حب الخير الانسانى فتكون أعضاء الهيئة الاجتماعية مختلفة النظام بما بين أعضائها من الفساد فتلك المنازعات الجزئية يظهر تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية الكلية حتى اذا عرض أمر من الخير أو الشر واحتاج الى التروى والتشاور فيه لتقرير مايدفع الشر أو يجلب الخير

رأيت تلك المناقشات الشخصية تحول بين الآراء والصواب وظهر ذلك النفور الذى ابتدأ من المصاهرة بما يقوم مقام النفور الذى توجبه المباينة فى الجنس أو المخالفة فى المشرب فما بالنا لا نتخذ الأسباب الطبيعية الاعتيادية التى وضعت لجمع الكلمة والتئام المتفرق وسيلة لما وضعت له معتبرين فى ذلك بما يرشد إليه الشرع القويم أو أحوال الأمم المتمدنة أو آثار القبائل المتوحشة وما بالنا ضربنا صفحاً عن مراعاة وسائل الألفة والوئام مع أننا أشد الناس احتياجاً إليها

نعم هنالك سبب واحد هو الذى أوجب هذا بل وغيره من الأمور غير مرضية وهو نقص التربية العمومية وعدم جريانها على طريقة شرعية كاملة وأن موضوع التربية ميدان أوسع تتسابق الأقلام فيه وأننا إن شاء الله نعود إليه فهو الذى يليق أن تصرف إليه الأفكار وتستجاب اليه الانظار



اختلاف الناس فى المقاصد والاعمال

من الناس من تلوح له المنفعة الخصوصية ضمن منفعة عمومية فلا يلتفت إلى الاولى ويجد فى إخراج الثانية الى عالم الوجود قصد أن ينفع أبناء جنسه أو نوعه أو صنفه أو وطنه على حسب تفاوت أفراد الرجال فى علو الهمم وبُعد النظر ومثل هذا وان كان وجوده فى العالم الانسانى غير مستحيل الا أنه لا يكاد يوجد فى كل طبقة من طبقات التاريخ الرومانى إلا أفراد قليلين جداً ان لم نقل أن وجوده عقلى. ووجود مدينة أفلاطون الكاملة حيث وصفها بأوصاف فلما نكون متحققة بها كلها فى عالم العيان ولكنا مع ذلك لا يسعنا أن ننكر أنه وجد ويوجد فى كل زمان أناس يقربون من مثل هذا قُرباً يكاد يجعلهم من هذا القبيل يفضلون المصلحة العامة ويخدمونها على قدر ما يصل إليه إمكانهم ويبذلون نصحهم لكافة ويسهرون الليالى الطوال طلباً لترقية أبناء نوعهم وانقاذهم من الهمجية ولم ينلهم من السعى فى هذا السبيل غرض من الأغراض فعاشوا فقراء وهم يحصلون لاخوانهم الغناء وقضوا حياتهم فى الخمول وهم يطيبون لجنسهم الرفعة

وماتوا كذلك غير مبالين بما لحقهم فى هذه الأعمال من المشقات والمقاومات والمعارضات وهذا القسم على كل حال نادر الوجود وان وجد منه فى أمة عدد قليل بلغت به أوج الكمال وتحلت بشعائر المدنية بين الأمم ورمقتها الأعين بالهيبة والاجلال، ومن الناس من يطلب فائدة نفسه خاصة من طريق منفعة العموم فتكبر نفسه عن أن يحصل لها شيئاً مخصوصاً بدون أن ترجع منه مصلحة لمواطنيه بحيث لو عرضت له منفعة لا يمكن فى ضمنها المنفعة العامة تنحى عنها ورمقها بعين الاستصغار رضاها من طريق الذي عماً منه بانه فرد من هيئة اجتماعية تعود منفعتها عليه بحكم الضرورة والوجدان لان هذا القسم تختلف مطالبه فنوع منه يظهر بأول النظر أنه مقتصر على جلب العمومية وهو من يكون مطالبه وغرضه من مساعيه كالشهرة والمجد وبعد الصيت وتخليد الذكر بعد الموت الى غير ذلك مما يقصده العقلاء ولا تلتفت اليه عامة الناس. ونوع آخر منه تظهر ثمرات جده وتعبه عليه كما تعود على بقية اخوانه وهو صنيع الذين كان سعيه لا شبه وكان هو واحد منهم فى حتته ،

الفائدة ومع ذلك فكل من النوعين يلتقى مع صاحبه فى أنه
خدم العامة وخدم نفسه على أنه واحد منها بدون أن يفضلها
على واحد ممن عمل لاجلهم وكلما أبرز عملا من أعماله إلى عالم
الظهور وأحست العامة بلذته وفائدته زادت الناس فى الاقبال
عليه فيجد فى العمل ليتمكن فى نفوسهم من المنزلة والاعتبار
وقد يكثر هذا القسم بنوعيه فى بعض البلاد فيكون بين
أهليها بمنزلة الوالد الرحيم أو المربى الشفوق يقتدى بأعماله
ويهتدى بأقواله فيأخذ عدده فى الازدياد وكلما كثرت أفراده
انتقلت الأهالى إلى مرتبة جديدة من الأخلاق تحبب اليهم
منافع إخوانهم وارتقت البلاد إلى درجة من التقدم والتمدن
وهكذا إلى أن تبلغ غاية تكون بها فى عداد الممالك المتمدنة
وبحسب أهلها من الأمم المتقدمة ونسبة تقادم الممالك فى
التمدن هى على نسبة تباعد الازمان التى ظهرت فيها أمثال
أولئك الرجال فكلما كان زمنهم بعيد العهد كانت الأمة أعرق
فى التقدم وأدخل فى باب الانتظام

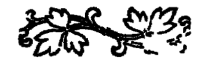
ومن الناس من يقتصر على اجتلاب ما له فيه المنفعة
الخاصة ولا يكون من همه إصلاح العموم ولكنه مع ذلك

لا يحب ضرر غيره بحيث لو عرضت [illegible] منفعة وكانت [illegible]
سواه تحاشاه وتباعد عنه فلا يرضى بخير [illegible] نفسه [illegible] ترتب
عليه الاضرار بأحد من الناس ومثل هذا [illegible] همته
قصيرة ونظره لا يتجاوز ذاته إلا أنه لا ينتج من وجوده
ضرر بالعباد ولا خلل في البلاد بل يمكن أن يقال أن هذا
القسم نعود منه أيضاً فائدة [illegible]
لا [illegible]

منفعته بأضرار غيره وما عليه صلح الناس أو فسد النظام بل من هذا القسم من يحب الافساد ويجتهد فى التخريب لأجل أن ينال فائدة وهمية أو خيالية ومثل هذا من الجهل المركب والغباوة الكلية بمكان عظيم وهو الداء العضال فى جسم الهيئة الاجتماعية الذى يجب استئصاله من عالم الوجود وهو التشويه الظاهر فى وجه العالم الانسانى والعضو الأشل فى بدن الأمم تلزم ملاشاته بالمرة لتستريح منه الممالك والبلدان

ولقد كانت البلاد المصرية محلاة بوجود الأقسام الثلاثة الأولى من الرجال وكانت لذلك نهجت منهجاً معتدلا سارت به بين الأمم موفقة بين مصالحها من الممالك حتى ظهر فيها القسم الأخير الشرير وهو الفئة العسكرية الباغية الطاغية قاتلها الله، فأخذ يسعى لمقصده المنحط غير مبال بما يلحق البلاد من الاضرار، والأنفس من الهلاك، والأموال من التلف والضياع، وانتشرت أفراده فى القطر تقتلع أصول ثروته وتبتلع مادة حياته وتجتث جذور الاصلاح التى غرستها أيدى الرجال النافعة. وقد استعملوا كل طريق من طرق الشر والافساد وحولوا عن أغراض شخصية دنيئة لا يقصدها

الا الأشرار فعطلوا سبل التجارة وأقفلوا أبواب الصناعة وقطعوا طريق الزراعة وفتحوا أبواب الوحشية والهمجية وأبادوا النظام وأخلوا بأوضاع الترتيب التى أسسها عقول الناصحين ولكن قد أبى الله إلا أن يتم ماأراده لهذه البلاد من الخير على رغم تلك العصابة الضالة



ماهية

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره إلى معونة الجهاز المخصوص الذي يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التي تدل على الأفكار وأن تلك الشارات تنقسم إلى قسمين : طبيعية وصناعية

فالأولى هي التي تصدر عن الذات من حيث هي أي بمقتضى وجودها المادي . وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الأعضاء ومثل الأصوات التي ليست ألفاظاً والكلام أي النطق

والثانية خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الإنسان في الماديات الخارجة عنه . وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دواماً طويلاً كان وقصيراً كالاعلام المرسومة والحفر والكتابة

مما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعي عام لكونه مفهوما بذاته من جميع البشر ومن الحيوان أحياناً كما هو الحال بالنظر

اشارات الأعضاء وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير
أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهومات الاشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي أو الاتفاقي لأنه
عبارة عن مجموع الألفاظ مخصوصة موضوعة للمعاني
المخصوصة وعن التراكيب أو صيغ [illegible] هذه
الألفاظ [illegible]
مخصوصة متنوعة [illegible]

[illegible]

[illegible] تعريف [illegible]

[illegible]

تجرى عليها [illegible]
[illegible] معنى الكلام

[illegible]

[illegible]

(الشرط الأول) أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً

(الشرط الثانى) أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له

(الشرط الثالث) أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها

وبناء على ماتقدم تكون شروط اللغة الحقيقة بهذا الاسم ثلاثة أيضاً :

(الأول) أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن إتمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل إلى هذا إلا إذا سهل استعمال اللفظ على قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لأجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن انوال هذه المزية الاهم الا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الأخرى لن تنالها أبداً

(الثانى) المرتبسة تقتضى تحليل الفكر الانسانى وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الأصلية الا نادراً

(الثالث) الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين والصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً ينتفى معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس ومن اللغات ماتميل بأهلها إلى الاغرب فى التعبير وهذا هو السبب فى غلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعياً أى بسيطاً ازداد وضوحاً فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على أنها طريقة لعمرو لو قع هى التى يسهل بها التعبير عن الأفكار وحركات النفس كما ينبغى .

وكأنى بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرته الآن خطر مذهب التجوز أو الاشتراك فى اللغة وذكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفى من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الأمم الأخرى

سمعت فى الاجتماعين الماضيين كلاماً كثيراً فى لغات أجنبية يأخذ أصلاً أو أصولاً ترجع إليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها فى حل مما يفعلون وأما نحن فإذا ... لغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية فنضيفها إلى لغتنا العربية

الحق أني ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فإني أنظر إلى اللغة اللاتينية التي هي أصل لغات أمم أوروبا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجدها لغات ممتازة تماما عن الأصل الفرنساوي من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى أن كل لغة حية هي لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماما وإذا استعاروا مصدر جديد [illegible] ذلك الأصل فإنما هم يستعيرونه من لغة أعجمية بالنسبة إلى لغتهم . الا ترى أنهم لا يقتصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها إلى اليونانية القديمة وأحيانا يستعيرون كلمتين وينحتونهما ويصقلونهما [illegible] زائد في الاسم فيصير جزء منها [illegible] في كتب لغة [illegible] كلمتين أصلهما [illegible] حروفه [illegible] . [illegible] أكثر من [illegible] . [illegible] كلها وسكناها [illegible] أو [illegible] ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون إلا [illegible] تجارة [illegible] المواد [illegible]

اسميات أ جعلها تشهد في أما كنها من التأزج بها
فيرى أهل بلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات
لأهل بلد آخر ولا يجدون من لغتهم نصيراً على التعبير
عنه تماماً لكنهم لا يحارون ولا يعقدون لاجتماع ولا اجتماع
ولا يفترقون شيعاً وأحزاباً بل يقدمون على تدوين مسمى
واسمه ويدرجون عليه من ساعته فيمتزج بلغتهم ويعرفه
الكل وبنجرون في حديثهم أن يغفلوه كأنه في نفسه به
من أمه ولا لأمة على ذات لا تحدى بعرفه كل من تعلم لغة
واحدة أجنبية . ثم يعمون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم
الفرنساوى وهو يقرر مذهبه عند ما يأتى على مذهب من
مذاهب الألمان إذ وصل إلى معنى خاص بحدته يفكر
أن يعبر عنه بغير لفظه الألمانى وهكذا تمتد كرة بهش
كتابه معنده

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يغير من صفة
الخلق والاشتقاق عليها بل ما زادت لغاتهم بهذا إلا ثروة
ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الأمم العربية عدا
لتكون الألفاظ الغريبة عن لغتهم برهاناً على سعة مدركهم

ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكورة بجزء من ترجمته

قالوا إن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا على عمل مايعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى فى هذا الاعتراض إلا أنه دليل أحد أمرين فاما شعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا أو قصور فى معارفنا وإما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هى أيضاً إلى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون وننقل عنهم كلامهم عن بعضهم ينقلون

نحن إما عرب أو مستعربون وإما أجانب عن لغة العرب أو مولدون فان كنا الأولين فانا حقنا فى التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادروا فليس من له أن ينازعنا فى استعمال ما كان مباحاً لأبنائنا من قبلنا وان كنا أجانب أو مولدين فمن له أن يسيطر علينا

ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها إلى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء فى بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على أنهم فى عزة وبعد نخوة وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من المعجمة لأنها عجمية بل استخدموها حيث وجدت الأخذ بها تمكيناً لغتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن اذ عمدوا بها عن مجاراة غيرها المتقدم وما أولوا نرى فيه وخوف من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزها معظم بين الأمم حتى كانت تعاصرها تجوز لنا أن نتخلف عن سيرهم فى طريقهم والاسترشاد بهديهم و نعمل بطريقتهم لحجة انهم تعرضوا وبدوا فلا حق لنا فى متابعة نرق ولا نجيز أن

نخطو بعدهم خطوة الى الأمام لكن من الذى استأجرنا حراساً من الحراس على هذه الوديعة وأى قوة أخضعتنا على الوقوف فى هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقص في الأفهام أم قصر فى الأجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الانسان

*
* *

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة امامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون. ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة أقيموا فى وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين

الكاتب القدير



المرحوم السيد عبد الله النديم

٥

المرحوم

السيد عبد الله نديم

ترجمة حياته

(ولد سنة ١٢٦١ هـ وتوفى سنة ١٣١٤ هـ)

نشأته الأولى

هو عبد الله بن مصباح بن ابراهيم وينتهى نسبه الى ادريس الأكبر من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب .
ولد بالاسكندرية سنة ١٢٦١ هـ — ١٨٤٣ م فحفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ التاسعة وكان أبوه وسطاً فى اليسار فلما رأى ذكاءه ونجابته أدخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا فقرأ على أكابر الأشياخ فأتقن فقه الشافعى والأصول والمنطق وعلوم الأدب اللسانية وهو فى سن المراهقة فأخذ من ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم فما لبث أن سارت الأمثال ببدائع آدابه وتسابق بلغاء الكتاب والشعراء إلى مطارحته وكانت الكتابة فى ذلك العهد قاصرة على السجع فابتكر المترجم فيها أساليب جديدة فى الانشاء فاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين تشهد بذلك رسائله الأدبية ومؤلفاته التى تبلغ نحو مئة مؤلف فى فنون مختلفة فقد

أ كثرها سرقة أو اغتصاباً أو حرقاً أو اغراقاً فى مياه النيل كما سيأتى تفصيله

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئاً مقداماً يميل إلى ركوب الأخطار ومعاناة الشدائد سعياً وراء المعالى وقد رأى أن ذلك لاينال عفواً . فكان أول مابدأ به من تلك المطالب المعجزة أنه نظر فى الوجود نظرة بحث مدقق فتبين له أن الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده فتعلم صناعة التلغراف واتقنها فى أقل مما يتصور من الزمن كأن الكهرباء لم توجد الا لتزاحم خاطره فى السرعة فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافياً (أو تلغرافجيا) فى مكاتب مختلفة أهمها مكتب تلغراف القصر العالى خاص على عهد عزيز مصر المغفور له اسماعيل بشا الخديوى الأسبق

ولم تكن وفرة الأعمال عائقة له عن التحصيل فقد كان يغتنم نوبة فراغه من العمل فيتردد الى الجامع الأزهر يطالع مع بعض رفق شبيبته الدروس التى كانوا يشتغلون بها . وأخص هؤلاء الرفق حضرة الفاضل العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش الأول للغة العربية بنظارة المعارف المصرية

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة فاتصل بكثير من المقربين والعظماء فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرها أفضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظما ونثراً فظهر عليهم جميعاً

ثم قصد المنصورة ترويحاً للنفس ورأى أن التجارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجراً فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمه تغلب على رأس المال والربح ففقدهما جميعاً وكان بيته ومتجره كعبة يحج إليها رجال الأدب وكانوا يتحدثون بمعجز رسائله ومحرراته نظما ونثراً

(٢) نشأته السياسية

ثم عاد إلى الاسكندرية أوائل سنة ١٨٧٩ وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه في هذا السبيل أن اجتمع بصديقيه المخلصين محمد افندى أمين باشكاتب محكمة أسيوط الأهلية ومحمود واصف افندى أحد جامعى كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة فكان الأول نائب

رئيسها والثانى كاتم أسرارها فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما أديب افندى اسحق وسليم افندى النقاش صاحبى جريدتى مصر والتجارة وتعرف بكثير من أعضاء هذه الجمعية وشرع فى بث أفكاره بما كان ينشره فى تينك الجريدتين ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فأقنع صديقيه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من أعضائها ثم ذاكرهما فى أنشاء جمعية علنية تسعى فى مايعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية فستصوبا رأيه . وشرع منذ ذلك الحين فى تأليف قلوب أهل الثغر علماً بأن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية فى آخر ولاية المغفور له اسماعيل باشا والقلوب واجفة والافكار مضطربة وقد خرست الألسنة وغلت الأيدى الى الاعناق حتى دنت ساعة الفرج بولاية المرحوم محمد توفيق باشا فقرت العيون وهدأت الافكار فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث فى الأذهان فوائد الاجتماع بلسان ناطق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه فى ثوب الائتلاف وتسارع أعيان الثغر ووجهاؤه للانتظام فى سلكها

وكانت هى أول جمعية اسلامية أسست فى القطر المصرى وكانت ترمى إلى غرض واحد هو تربية الناشئة وبث روح المعارف فيهم لترقية الافكار وتطهير الاخلاق من دنس الجهالة

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الايتام وأبناء الفقراء مجاناً فسعى المترجم جهده حتى أكسبها عناية أمير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولى عهده فكان ذلك أدعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا فى توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لهـا فضلاء المعلمين من العرب والافرنج وأقاموا المترجم مديراً لها فوضع لها أساساً محكماً وعلم فيها الانشاء وعلوم الأدب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلثمائة فى زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيهاً فى كل عام

فلما رأى المترجم أن غرسه قد كاد يثمر استرحم المغفور له الخديوى السابق أن ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فاجابه إلى ما طلب

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على

قصر المدة ما لم يبلغه غيرها فى أزمان متناولة و نالت من التفات المرحوم توفيق باشا منا الارفع قدرها و نشاطها وزادها زهواً ونماء مع ما كان يبذله صاحب الترجمة من العناية في عقد الحفلات العامة فى بهوة المدرسة يحضرها كبار القوم وسراتهم فيسمعون المطرب والمغرب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولا حديث لهم الا ترداد ما سمعوه من العبارات الآخذة بمجامع القلوب

وفى تلك الاثناء مثل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول الى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم «الوطن» و«العرب» مثلهما هو وتلامذته فى ملهى زيزينيا بحضرة ساكن الجنان الخديوى السابق فكان لهما فى نفسه من حسن الوقع ما بعثه على أن يدفع من ماله خمس مئة جنيه مساعدة للجمعية

ولكن حسد جر بعض ذوى النفوذ فى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية و قيل من ادارتها

وكان قبل ذلك قد تركت الكندية الادبية و ستف

بالتحرير السياسى على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفية فكان يحرر جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرح للمرحوم سليم افندى النقاش باصدارهما عقيب الغاء « التجارة ومصر » وابعاد المرحوم أديب افندى اسحق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندى عباس والمرحوم فضل الله الخورى فترك لهما أمر هاتين الجريدتين وأنشأ « التنكيت والتبكيت » وهى جريدة أسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فأودعها مالم يسبقه أحد من كتاب العرب اليه

ثم استبدلها بالطائف على ماقضت به المناسبات الزمانية قبيل الثورة العرابية وكانت « الطائف » سياسية محضة بلغت من الشهرة مالم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الاذهان . ثم اغتصبها منه أمراء الجند أثناء الثورة ولم يدعوا له منها غير الاسم فكانوا ينشئون فيها مايشاؤون دون أن يقدر على رد واحد منهم حتى انطفأت جمرة تلك الثورة فاختفى

أما قيامه بنصرة الحزب الوطنى فسببه أنه لاقى فى معاملة

الحكومة له ولغيره ما يدل على تفضيلها الأجنبي لخدمتها على الوطني واتفق ظهور نيران الثورة فاصابت منه هوى في الفؤاد فتمكنت لانه سمع رجالا تنادي بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها في أم الصحف حتى اتفقت الآراء على أن في مصر حزباً وطنياً لاهم له إلا انتشال البلاد من وهدة الخراب فكانت رسل الحزب العسكري تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم إليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطني واتخذوا جريدته مجالا لاقلام كثيرين منهم ومظهراً لافكارهم ولكنه كان يتأفف من وقوعه في تلك الورطة فاذا خلا باحد من أخصائه أظهر له حقيقة ما يضمر وأنبأه بمصير تلك الحال

ولم يمض بضعة أسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت إذ أنبأها البرق بضرب الانكليز الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشاب بينهم وبين عرابي فقدم المترجم مع محمود باشا سامي البارودي وغيره من رؤساء جند المتخفين في الاسكندرية فوجدوا الجيش المصري يتأهب مغادرتها

الى كفر الدوار بعد أن صارت معالمها دوارس فباتا (هو وسامى) فى منزل المترجم فلما كانت ما يسمونه بواقعة التل الكبير فى ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقت السحر فر عرابى وأخوه وعلى الروبى وتبعهم المترجم فجاءوا القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا تواً إلى قصر النيل مركز نظارة الحربية إذ ذاك فتألف وفد ليسيروا الى الاسكندرية يلتمسون العفو من الخديوى والنديم فى جملتهم ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين فقضى عشرة سنوات مختفياً بمديرية الغربية بين ميت الغرقا والعتوة والجميزة وغيرها فيتنكر تارة بزى الدراويش وطوراً بزى المغاربة أو غيرهم والحكومة تبث العيون والارصاد للقبض عليه وهو أقرب إليها من حبل الوريد فلما أعيتها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها الف جنيه وكان العارفون بمكانه كثيرين ولكنهم حافظوا على ولائه فأخفوه مكرماً معززاً حتى قبض عليه فى شهر نوفمبر سنة ١٩٨١ أواخر ولاية المرحوم توفيق باشا فجىء به الى طنطا حيث حبس أياماً وسئل عن موجب اختفائه فأوضحه بما

لا يخرج عما تقدم فعفا الجناب الخديوى عنه ولكنه أمر بابعاده إلى حيث يشاء من البلاد غير المصرية . فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام وأقام هنلك مدة ثم أزمع السياحة فى تلك البلاد المقدسة فخرج من يفا فى مارس سنة ١٨٩٢ مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل جرزيم وزارا مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرا بأماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الاقصى ثم عاد الى يفا

وفى تلك السنة (١٨٩٢) عفى عن المترجم فعاد من يفا الى القاهرة وظل متردداً بينها وبين الاسكندرية أكثر من شهر ثم اتخذ الاولى موطناً وانشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية « الاستاذ » فنالت من الشهرة والانتشار فى شهور ما لم تنله سواها بأعوام وكان لها تأثير شديد فى افكار الامة على اختلاف نحلها

ثم الغيت لاسباب يعلمها كل متدبر لان العهد بها غير بعيد . وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانية فى

يافا ودفعت له الحكومة المصرية أربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيهاً كل شهر على شرط أن لا يكتب شيئاً فى الجرائد يختص بسياسة مصر فلبث أربعة أشهر فى يافا . ثم أبعد منها بارادة سلطانيـة فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها أياماً قابل فى خلالها صاحب الدولة الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانيـة بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى ورتبت له ٤٥ جنيهاً مجيدياً كل شهر فوق ما كان يتقاضاه من الحـكومة المصرية وكان ينفقها كلها فى سبيل الخيرات والبر بالاهل والاقارب والاصدقاء

وقد نال لدى المقام السلطانى الحظوة الـكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وأرباب المظاهر العلمية ولكنه اختص بالملازمة والمودة الامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغانى فاتصلت بينهما أسباب الألفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد حساً ومعنى . وقد بلغ تعلق السـيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى

المناظرة والجدل وسرعة بديهيته فى التحرير حتى صرح فى عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعاً محكماً بازاء معانيها إن خطب أو كتب

وقد كان يود الرجوع الى مصر ليقضى بها بقية أيامه ولكن داهمه السل الرئوى فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٦٦ فأمر جلالة السلطان الأعظم أن يحتفل بمشهده على نفقة الجيب الشاهانى الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطانى وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم العلامة السيد جمال الدين الافغانى والمولى الشيخ محمد الظافر شيخ السلطان والشهم الكريم المفضال السيد عبد الرحمن الجزولى حتى دفنوه فى باشكطاش .

ولقد مات المترجم ولم يورث أهله الا الحزن والعناء لأنه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا يمضى عليه بضعة أيام حتى يفرغ من توزيعه على الاقرب و لابعد دون نفسه

أما أخلاقه فانه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصده

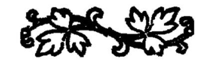
ولو لم يكن يعرفهم فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به ولا رد يوماً سائلا ولا خضع لعظيم قط وانما كان يلين أو يتواضع لصغار الناس وأواسطهم وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ناثراً

(٣) مؤلفاته وكتاباته

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا . وديوان آخر فى نحو ثلاثة آلاف بيت وروايتا « الوطن » و « العرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها الا الى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء الجزيل . وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضه فى الاستاذ) وواحد وعشرين كتاباً فى فنون مختلفة قطع لأجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام . منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليه فى الاستانة . ومنها النحلة فى الرحلة والاحتفاء فى الاختفاء . والنزك فى المشترك . وكتاب فى

المترادفات . وآخر فى اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول . والفرائد فى العقائد . وللآلئ والدرر فى فواتح السور . والبديع فى مدح الشفيع . وأمثال العرب وغير ذلك

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقاً أو ضياعاً أو اغتيالا



المختار من نثره

لواء النصر فى أدباء العصر

وهى رسالة أنشأها عند دخوله محروسة مصر للاقامة بها سنة ١٢٧٧ هجرية وكان سنة إذ ذاك ستة عشرة سنة وقد اجتمع بجماعة من الشعراء والمتشئين بواسطة أديب مصر المرحوم الشيخ أحمد وهبى وقد تعرف منه بستة من الشعراء علم أنهم أدباء العصر على التحقيق فكتب هذه الرسالة فى تراجمهم منسوبة على منوال من السجع لا على وتيرة واحدة وهى

الحمد لله مولاه والصلاة على أصل البديع الشفيع وبعد فهذه نتيجه بهيجه عن ناقل الأكياس من الناس روى عن فكره عن لبه عن نظاره عن قلبه حديثاً حديثاً الصدق منه والحق عنه والدقة اليه والرقة عليه انه ركب افراسه وثار واستصحب الفراسة وسار يجوب الاقطار اختباراً ويترك

الأوطار اختياراً ويقرأ الجرائد اكتشافاً وينظر الجرائد استلطافاً فى شرف نفس عن الناس على طرف أنس بلا كاس لا ترده المتاعب عن أمله ولا تلهيه الملاعب عن عمله حتى ملأ أوعيته حكماً وعاد أنديته حكماً وقابل أحباره ببضاعته وقص أخباره على جماعته فغطوا رؤوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا سكوتاً لا يتكلمون من الهم ومرضى يتألمون من الذم فتعلق بالأذيال وصاح وتحقق الوبال فناح ونادى بأعلى صوت أيها الكرام هذا هو الموت تقومون بلا كلام مع أنى عبدكم فى الخدمة وعندى عهدكم فى الذمة ما أضعت لكم مالاً ولا أطرت لكم سراً ولا عكست لكم حالاً ولا أثرت لكم شراً زودتمونى لسفر نجبت وقضيت الوطر وأبت بكواكب دريه كلها غرر وغرائب أدبيه حليها درر حسبما أوصيتمونى وقت النحله فلم تركتمونى بعد الرحله هل بضاعتى رديئة أم بيعتى نسيئة كلا لا بضاعة أحلى من جوهر العقد فى جيد السعد ولا أجل بعد النقد يداً بيد ولئن لم يتم القبول بقبح أذواقكم مضيت بها قبل الذبول لغير أسواقكم ثم رحل بها

الى الأسواق المأنوسه أسواق الأدب فى مصر المحروسه
بستان الادب ووضعها بخان شاهبندر التجار فحفظها وما خان
وأمنت البوار إلا أنه لم يعرض البضاعه على أهل الصناعه
من أول الأمر بل لزم حده وسكت مده على نار الجمر
واستصحب الجلد ودار البلد لمعرفة السلع حتى عرف الجديد
من الرث والثمين من الغث من الجواهر والخلع فرأى الناس
يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب فى المعامله وكل
ينادى على بضاعته ويفتخر بصناعته حتى يكدر آمله فلا يربح
منها غير الكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسد البليد الحمار تراه
فى المتشدقه كأنه فى مشنقه يحاول الفرار يعارض أستاذه
ويفتت أفلاذه بما يبديه إن دخل على أمير لا يفارق السرير
حتى يسديه وإن فارق صوبه جرثومه مهرولاً فى منيته يسلم
بالبنان وينكر بالجنان ويعبث فى لحيته ان جلس نفرطح
وان نام تبطح وإن قام تمطى وإن نكلم مقت وإن استفتى
سكت فان أجاب أخطأ وما ذاك إلا من عدم الالمام والخروج
عن مذهب الامام والاقتصار على الاجتهاد فلو اكتسى
بالحلم ولزم أهل الهدى لروى واستفاد فان من حاد عن هذا

المورد النهل ورضى بمر الجهل ضل ومن اعتمد على العقل
وازدرى بالنقل ذل ولكن صار الجهل شرابهم وستنعق البوم
غرابهم لخراب رؤوسهم واتخذوا الضمع أمامهم لحول الفقر
ذمامهم لذل نفوسهم فقال بئس الصنيع يتقدم الوضيع ويتأخر
الشريف ويتطاول اللئيم فى مجلس الكريم ويذم الظريف
فرجع إلى الشاه الكبير الجليل الأمير السيد الشهير تاج
النباهه بدر الكرام ورونق الأيام بل باب السلام ونفس
النزاهه لسان العرب ومعدن الأدب عريق النسب ساهر
الأخلاق روض البيان نبت الجنان حلو اللسان سامى الأذوق
بفيض المعارف حبيب المعارف لغيث لو كف سمير معانى
البليغ الرشيد الحبيب المجيد لعقد الفريد ... سان
عينى وعين انسانى بل نور ابى لسان فنى وفن ... السيد
أحمد وهبى وجلس بين يديه وأخبره بالحقيقة فى آخر قصة
... ... دخله حديقه وداوى به نغمه بحديث
أحلى من ... من قرب و... و... وستريح
من ... و... ... فى ... ثم ... ...
... ... يرويه عنه ... ...

وقال لكل سلعة قوم ولكل قوم بضاعة ولكل عصر رجال
وحالنا اليوم تزييف الصناعة وطلب المحال والعادة ان اعتيدت
صارت طبيعة لا يمكن فوتها والسادة أبديت فى المدة البديعة
ومضى وقتها ولكن على من اجتمعت وجلست معه ومن
عرفت وممن سمعت وكنت تبعه ومنه اغترفت هل اختبرت
بنفسك وعلمت أفرادهم أم اتكلت على الأخبار السائرة فان
أبناء جنسك لا يحسنون انشادهم الا فى الأمور الطائرة وقد
كثرت تجار هذه البضاعة فى كل سوق وكل ممترى
فهجرت الناس هؤلاء الباعه ومالوا إلى الفسوق فقل المشترى
فالتزم كل دلال أن يحمل على رأسه وكتفه ويمشى فى طرق
غير مستقيمة ليروج هذه الأحمال بتزيينه وحلفه ولو بدون
القيمه فقال إنى لم أجىء للبيع والشراء مع هذه الطائفة الزائفه
وجوب القرى فى المدة السالفة للأمة العارفة ولم أدخل بيت
أحد طمعاً فى فوائد أو جرياً على عوائد بل دخولى هذا البلد
برسم السيد الماجد الفرد الواحد الكامل المؤدب البارع
النجيب البليغ الأديب الشهم المهذب المجيد اللبيب المحب
الحبيب عزيز الوجود حافظ [1] المعهود ومنه تعرفت بحضرتكم

(١) اشارة الى صديقه المرحوم عبد العزيز بك حافظ

وبه تقربت اليكم ووفدت عليكم حتى تشرفت بطلعتكم ووقفت بين يديكم وحظيت ببعض مالديكم ثم أخذت أسأل جرائد الأخبار عن أهل المعارف والعوارف فرأيت فيها من عد من الأحبار وهو من أهل المعازف أو المناسب حتى سئمت نفسي وعلمت أن الأدب عدم صحبه فقضى نحبه وتحققت فوت أنسي وقلت اقنع من الغربه بحسن الأوبه والزم وكرى فهو لى جنه بل جنه وأجانس فكرى وأحسن ظنه بلا منه فقال لى انك لم تر غير هذا الشهم سماء إخوانه وبدر خلانه وسحاب جيرانه صائب الفهم المعنى الوجيز عبد العزيز الحفظ المجيز الوانه بالجود حسن الخلق والخلق محب الصواب والحق رب الوفاء والصدق ذى السير المحمود والرأى الصافى والعقل الوفى والقول الشافى نعم وإن كان شمس الامارة ومعدن الكرم ونابت لقدم بل المفرد العلم إلا أنه لا يجانس هذه التجارة وإنما هو ذو مقام عالى يشترى اللآلى بالثمن الغالى ولا فصنعه في هذا العصر كثير والعدد قليل او ارشد عادم عدد لا لفقد المشترى في هذا العصر بل لسعى الأجلاف في غش الأصناف مع عدم الانصاف فشق كل بفعله وانكسر جمله وخاب منه

وضل عمله فلم يبق منهم على أصله سوى من لاذ به البديع
والتجأ ولم يرض منه بمسكن غير الحجا حتى أمن من السفلة
ونجا من رضع قلمه ثدى البيان فجرى فى بحر الأدب وخط
وسار بالسلامة من شط إلى شط ولم يدركه عطب قط فنظم
فكره عقود الجمان وحلى بالدرر النحور والغرور بل الطرر
العالم المدقق بدر هذا العصر ولسان الأدب فى مصر السيد
على أبو النصر زكى محقق أمام كبير حافظ خبير ليس له نظير
فانه إن تكلم أوجز وإن أنشأ أعجز وإن وعد أنجز وإن
سكت هابته القلوب ليس فى مجلسه شغب بل كله طرب
فى أدب بكل أمر محبوب وفيه من حسن الأخلاق ماتتحلى
به الأذواق بل الأطواق فى الرقه وعنده من المعانى حصن
الأمانى محكم المبانى بكل دقه فهذا قوى الجلد طاهر الخلد
أديب البلد أبو الفصاحة ابن الشرف وخدن التحف مباهى
السلف بحسن السماحه نظمه نظم اللآلى ونجمه بدر المعالى
وحظه مدح الموالى وحليه الذوق السليم والطبع القويم يقول
الزجل على عجل بلا وجل بأفصح لسان وبالسجع يداوى
الصدع ويشنف السمع بأوضح بيان ويليه صاحب الحماسه

والفطنة والكياسه روض البـديع وثمرة أفنانه مجلى عرائس
الابكار فى خدور الافكار لكل مقام رفيع من قومه وإخوانه
الذى طلع فى سماء المعارف شمساً وطاب برقائق الأقوال
نفساً وأرضع العلم لليراعه فنطقت بأحسن براعه زاحم من
تقدم حتى جلس فى الصدر وسهر الليالى حتى رأى ليلة القدر
ففاق الجماعة فى هـذه الصناعة تمشى المعانى تحت ظل ركابه
وتجرى البلاغة طبق أمر جنابه فانه زينها حتى تحلت وزفت
فى الوجود وتجلت خاتمة أهل الأدب وقاموس لسان العرب
من سحت سحب معانيه فأروت محمود أفندى صفوت (١)
فهو المشار إليه بالبنان المنفرد بالبيان فى الرقائق الأدبية
والمحاسن العربيه لم يلحقه فى هـذا الميدان فارس ولم يدرك
معارفه ممارس وانسجام البديعية يقضى له بالافضلية مع بقية
غرائبـه الشهيرة وكواكب سمائه المنيرة التى ظهرت للعيان
فأبصرها العميان لاينكرها إلا الجاهلون ولا يعقلها إلا
العالمون ويليه الشاب الذى غرس غصن القريض فأثمر واطلع
هلال البديع فأقمر وفوق سهم الاجادة فأصاب الغرض وعالج

(١) الشهير بالساعاتى السكندرى أصلا

جسم العروض حتى نقه من المرض اللوذعى السرى المدره الجرى مجلى من خدور أفكاره كل بهنانة رعبوبة ومبدى للوجود كل آية أعجوبة المرجف بفخامة لفظه قلوب المران والمخرس بجزالة نظمه ألسنة الخرصان من رق حتى استعبد حر الكلام وعف حتى تشربته قلوب الكرام إن جلس للانشاء جثا سحبان على ركبه وان أعمل قلمه كف قس عن خطبه غيث البديع الهامى محمود بك سامى (١) ويليه بستان الكلام وعنوان الكرام الشاب الذى شمر عن زند الفهم وحسره وحمل على جيش المعانى فأسره البارع الذى فاح عطره على المعارف فنشقته ورأت بنات الافكار جمال ذهنه فعشقته الفاضل الذى ألفته اللغة العربية وعرفته المعانى الادبية فطلع فى سماء العلم بدراً وجرى فى فيافى الفنون بحراً الاديب الذى سمعه بلبل الذوق فأفصح ورآه زهر البديع ففتح ولزمته المحاسن لزوم النور للبدور وهامت به المعارف هيام النفوس بالسرور خدا البديع المورد القانى الشيخ أحمد الزرقانى ـ ويليه الامير الذى دعا الادب فلباه وساسه حتى رباه فظهر للوجود

---

(١) محمود باشا سامى البارودى رئيس مجلس النظار فى الحوادث العرابية

بدراً مابه أفول وغصناً لم يعتره ذبول فهو بين أهل الصناعة الرئيس والجوهر النفيس نظم من المبانى أرقها ومن المعانى أدقها الشاعر الناثر المجيـد الماهر من غاص بحر الادب واستخرج الصدف من قاعه وحاصر جيش البديع حتى صار من حزبه وأتباعه عقد جيد الزمان الفريد محمد بك سعيد [١] فانه امتد فى البـلاغة باعه فأعيا معاصريه أتباعه ـ وأفضلهم بستان العـلم وزهر الحلم مجرى جياد أفكاره فى كل ميدان محلى بجواهر ألفاظه كل ديوان رامى نبال وعظه الى الاحشاء ومفوق سهام بديعه إلى الانشاء حامل لواء العـلوم العقليه وقائد جيوش الفنون النقليه مطلع شمس الامانى ومبارز فرسان المعانى الهمام الذى إن أطنب أطرب وإن أعرب أغرب اللوذعى الذي أن ألف لم يتكلف بل يجعل الانسجام زينة الـكلام وإن نثر كر بهجوم على سرايا النجوم فالنثر كتاب هو عنوانه ولبه ملك والنظم ديوانه نفث فى المعانى نفثة ماهر لا نفثة ساحر وخدم الفنون خدمة مجدى لا خدمة مـكدى ورواه الصدق بنهله حتى اعترف بالفضل لاهله من

(١) نجل المرحوم جعفر باشا مظهر

ملأت من دنان أدبه أقداح سكرى عبدالله بك فكرى [1] فهو واحد الدنيا وممتطى العليا فهؤلاءهم تجار البيان و نبلاء الزمان لاتنشر الرقائق إلاعنهم ولا تقتبس المعارف إلا منهم ومن عداهم رعاع لم يضىء لهم شعاع يسرقون الكحل من العيون ويمزجون الجد بالمجون فساق فى صفة عباد وسفلة فى هيكل زهاد ثياب منقوشه وعمائم منفوشه (وأعباب) كبيره ممتلئة كبيره لايعرفون من العلم الا إسمه ولا من الادب الا رسمه ان رأوك على بساط الادب تطفلوا فان أخذت فى البحث تنصلوا على أن شهرتهم أكبر من الاجرام ولحاهم أطول من ألية الاغنام فعلمت أنه التزم الصدق وقال الحق وعجبت من حسن قريحته وشكرته على نصيحته

(١) المرحوم عبدالله باشا فكرى ناظر المعارف المصرية سابقاً

طالع الكرامة يحسن السلامة

وهى رسالة كتبها إلى أستاذه المرحوم الشيخ محمد العشرى وقد بلغه إنه كان راكباً عربة مع بعض الناس فى زمن المطر فوقعت بهم العربة ونجا الشيخ منها سالماً وأصيب الذى كان معه فكتب اليه بعض الاخوان من الاسكندرية يهنئه بسلامة الأستاذ وكان إذ ذاك بينهما فكتب الى الشيخ هذه الرسالة وهى سجعات مختلفة الأوضاع والأوزان من مبتكراته كما سيظهر للقارىء

منحتنا اللهم سلامة الروح فلك الحمد على هـذه المنحه حمداً بلا عد ووهبتنا صحة لب البيان فلك الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد يلوح بدره ويفوح عطره روح هو عين الحياه ومدد العقل ولب هو منطق الشفاه وسند النقل طال عمره وجال أمره غـذاء النفوس وبهجة المهجه ونور الشموس ومهجة البهجه أمنا سرّه وعمنا برّه أستاذى وقدوتى وعين بشرى وملاذى وعمدتى محمد العشري قام ذكره ودام شكره سـيدى ومجيرى ومؤيدى ونصيرى يخصك التحيه غرس بستانك وغصن رقتك وزهر إحسانك وثمر دقتك

الطيبة الشهيه ويهـدى لسيادتك الرفيعة الشريفه ويعرض لسدتك المنيعة المنيفه سلام لسان وجنان ويميـل لرأفتك وعظيم فضلك بل الى رحمتك وعميم عدلك ميل حيران ولهان

رمى بالعناء وطول التنائى على أنه مخلص فى الوفاء

لعبت به الاشواق فى مصارع المشاق لعب الراح بالأرواح فى مجلس الأنس وجرت به الأتواق فى ميادين الأذواق جرى السحاب والارواح فى حومة الشمس وقاده الهيام إلى باب السلام فظللته الأرواح وطابت النفس حتى طرق الباب وتقدم للجناب فكتب فى الألواح مزيل اللبس

صار عين البديع بحر المعانى باب كنز الفنون سر البيان

وما زلت تغمسه فى ألوان الفنون حتى انصبغ وتنشده الجد والمجنون حتى نبغ وجرى خلفك فى ميـدان النباهه وصار الفك فى العفة والنباهه

قدكابد الصبر حتى صار مطعمه لايسأل الناس إلحافاً وإلحاحا

إن تـكلم بلسان فبيان من جنان وان خط ببنان فباحسان عن فرفان وان انتسب فنعم النسب مع الحسب ولا عجب فالى العرب فن الأدب

آباؤه الغر أهل الجود والكرم وكلهم غاية فى الحلم والكلم

ربيت فأحسنت وغذيت فأسمنت مؤدبا ليثا ولنت

فسودت وجدت فعودت مهذبا غيثا وعلمت فأفهمت وأشرت

فألهمت غرض سهمك وقد نلت ما أملت فيمن عليه عولت

بحسن فهمك

غلامك الشهير بالنديم من صار فى البيان كالنسيم

وكيف لا يكون لسانى قوس البديع وكلامى السهم السريع

وأنت باريه وراميه أم كيف لا يكون مقامى الحصن المنيع

وقدرى العزيز الرفيع وأنت معليه وبانيه فوجه جمال العلم أنت

غرته وانسان عين الحلم أنت قرته وحاليه وجاليه وجبين

العقل أنت طرته وكتاب الفضل أنت صورته وطالبه وتاليه

على بابك العالى من الفضل راية

على رأس أرباب المعارف تخفق

فعلمك جنات وحلمك جنة

وكلك خيرات وغيثك مغدق

أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه

من الفضل عريانا وغصنك مورق

اذا رمت إنشاء فمن صدق فكرة

تهادى بأبكار وغيرك يسرق

ثم أنهى لفضيلتك وحضرتك السنيه ماوصل الىّ فأوجب الشكر على مادمت حيا وهو سلامتك من تلك البليه بمعرفة العربيه وقد وقع فى الرى من أدركه العى ولم يع شيأ أدخله التقصير فى جمع التكسير فكنت فى جمع السلامه تحية وكرامه اذ كنت تقيا وظهر ذراعه الكسير ظهور الضمير ومذ رأى أولاده آلامه وفهموا كلامه صاحوا بكيا

قد أتى أهله فساءت دياره اذ وهت رجله وبانت يساره

ولو جاءهم الخبر فى الابتدا لطلبوا الفدا وقالوا اتقبرهل للصدى ردالندى ولو سلك الفحل طرق الهدى أمن الردى وما وقع فى الوحل وترك العدا تجلوا الصدا فالحمد لله على السلامه والنعمة والكرامة إذ أنقذ عمدتى وأنجد منيتى فانه باب السلام وبدر التمام

درر النحلة وغرر الرحلة

وهى رسالة بعث بها من الاسكندرية الى صديقه الشيخ أحمد وهبى

لك الحمد ياموفى كل عامل أجره والصلاة والسلام على صاحب الهجرة وبعد فقد ألهمنى خير من رحم السعى فى صلة الرحم فخرجت آخر الصوم وقت العصر من المحروسة مصر بوابور يقطع الطرق قطع الصواعق للجو والغيث للنو كلما أطعموه نفر وزمجر وصفر حتى اذا التهب قبسه وطلع نفسه أرسل الدخان خلفه ذوائب والاخبار أمامه جوائب ثم نبه رفقته للسير وحثها على الطير [1] وسار ولكن بحساب وهى تمر مر السحاب فما ندرى أهو النعمان يوم عبوسه ام الحجاج يمر على حبوسه أم عنترة يكر على آسر عبله أم الكسعى يشفع قوسه بنبله أم جبان رأى الصمصامة فى يد عمرو أم سياف صدر له من الخليفة أمر تارة يرينا حملة على على ابن ود وهجومه على باب خيبر وقد سد ويقول خذوا من اندفاعى كيفية سير الأفعى فى نعيم أبساط الأرض يطوى على عجل أم ليالى الأنس تسرق الاجال فانا كنا

---

(١) المراد برفقته العربات المقطورة خلفه

لا ننظر فى هيئته ونعجب من مشيته إلا وقد عدل عن السير وكف وأدرك المقصود ووقف اذ ذاك يضيق عليه المجال لكثرة النساء والرجال والاطباء تجس نبضه وتتعهد طوله وعرضه فان وجد فيه اختلاج بادروه بالعلاج حتى إذا صح السقيم وأخذ شهادة الحكيم ودع القوم وثاروأرسل العنان وسار وأنا أقول فيه لا كون من واصفيه

نظر الحكيم صفاته فتحيرا   شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله   بجديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده   وجداً فيجرى فى الفضاء تسترا
تلقاه حال السير أفعى تلتوى   أو فارس الهيجاء اثار العثيرا
أو اكرة أرسلتها ترمى بها   غرضاً فجلت إن ترى حال السرى
أوسبع غاب قد أحس بصائد   فى غابه فعدا عليه وزمجرا
فكأنه المديون جاء غريمه   فانسل منه وغاب عن تلك القرى
أو أنه شهب هوت من أفقها   أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا
لاعجب للنيران إذ يمشى بها   فمن اللظى تجرى الورى كى تحشرا

فقيد العلم والادب



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

٦

فقيد الادب والعلم

المرحوم

السيد مصطفى المنفلوطي

حياته

ولد المرحوم السيد مصطفى بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى فى مدينة منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر سنة ١٨٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجريه من أبوين كريمين ينتهى نسب أولهما إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وثانيهما إلى أسرة چوربچى التركية المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل . وأسرته لأبيه فى مدينة منفلوط أسرة مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل . وأكثر أفرادها من نحو مائتى سنة قضاة شرعيون (١) ونقباء أشراف . ووالده السيد محمد لطفى دضى منفلوط الشرعى سابقاً (٢) وعين أعيانها (٣)

(١) الحميب على امور — نعريف (٢) بين لمتاع — حياره (٣) عياذ اس — اشرافهم

دراسته

خرج من المكتب حافظاً للكتاب الكريم فى سنة ١٨٨٨ ميلادية فأدخله والده مدرسة الأزهر الشريف كجميع أفراد أسرته فامرت به سنوات قلائل حتى عرف بين أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق فى الفهم . ثم نزعت به نفسه إلى مذهب فى التعليم غير المذهب الذى يذهب إليه الأزهريون فى دراستهم . فكان لا يطالع دروسه فى الكتب الأزهرية إلا على صورة تكفل(١) له فهم جواهر المواضيع والتثبت من حقائقها . غير حافل بما تشتمل عليه عادةً من المناقشات اللفظية والمنازعات القشرية . فكان لهــذه الخطة فى التعليم أعظم تأثير فى سلامة ذوقه وصفاء ذهنه . وأصبح له متسع من الوقت ينفقه فى دراسة ما يتيسر لديه دراسته فى كتب الطبيعة والأخلاق والأدب والحكمة حتى غلبت عليه تلك العلوم خصوصاً الأدب منها وشغف بها عما سواها شغفاً ملك هواه واستأثر بلبه . فعلت مداركه وصقلت مرآة ذهنه وهتف بنظم القطع النثرية والشعرية وضمنها ماشاء الله

---

(١) تضمن

أن يضمنها إياه من فنون الشعر وأفانين القول في الأخلاق والآداب والانتقاد والوصف . ولكن كان ذلك في بادىء الأمر كما يمكن أن يكون . لا كما يجب أن يكون . ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به لصوق الولد بأبيه وأكثر من مصاحبته في درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه عشر سنين كاملة فكمل من علمه ما كان ناقصاً ونضج من أدبه ما كان غير ناضج . وكان الأستاذ رحمة الله عليه يعجب به كل الاعجاب ويثني على ذكائه وفطنته الثناء الجميل . ويعلل نفسه بأنه سيكون من أفضل المنتفعين بعلمه والناشرين لمبادئه وتعاليمه . وما زال هذا شأنه معه حتى لحق الشيخ رحمة الله عليه بربه فحزن عليه المترجم حزناً شديداً حمله على هجر الأزهر وسفره من القاهرة وانزوائه في بلده منفلوط برهة من الزمان كاد ينساه الناس فيها حتى طلعت طلائع[1] رسائله المشهورة في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فالتفت القارئون لها ثم زحفوا إليها ثم تزاحموا عليها تزاحم الابل الهيم على وردها فكانوا يعدون لها أيام الأسبوع يوماً بعد

---

(١) الطليعه — القوم يبعثون أمام الجيش يتعرفون طلع العدو أي خبره

يوم ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم
من الفجر الطالع . والظامىء فى المهمه القفر من الغيث الهامع.
فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشرات ومئات من أدنى
مصر الى أقصاها ومن كافة الاقطار العربية متضمنة الأسئلة
المختلفة فى الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والاخلاقية .
فأصبحت الأمة تعده منارها الذى تهتدى به فى ظلمات
الشبهات . وموئلها [١] الذى تعتمد عليه فى حل المشكلات .
ولا أظن أن الامة العربية لهجت [٢] ببيان كاتب وجمال أسلوبه
ودقة مسلكه فى هذا العصر الاخير شغفها برسائل المترجم .
ولا أظن أن السبب فى ذلك إلا أنه قد فاجأهم من ذلك
الاسلوب العربى الفصيح بما لا عهد لهم بمثله. لا فى رسائل
بلغاء الكتاب الأدبية . ومراسلاتهم الخصوصية . بعد
ما تلوثت أقلام أكثر الكاتبين فى الصحف باللهجة الافرنجية
تارة والصحافية تارة أخرى

أخلاقه

أما أخلاقه فانقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى
صلفاً وكبراً وما هى بالصلف ولا الكبر ولكنها الرزانة والوقار

---

(١) وئل الى الله — رجع والتجأ (٢) لهج به أولع به.

والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الأمور وصغائرها والترفع عن مخالطة كل من لاتعجبه أخلاقه . ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى عن مد يده إلى أبويه لأنه قد قنع بما فى يده من المال القليل [١] فزهد فيما سواه . وأحسن ما يعرفه له الناس فى باب العفة والشهامة أنه ماأخذ فى حياته أجراً على أدبه ولا انتفع من وراء قصائده أو رسائله [٢] بدانق أو سحتوت . [٣] وكرم فى الخلق طالما كان سبباً فى وصول الأذى إليه وكان آخر عهده بذلك الأذى تلك القضية التى رفعتها عليه النيابة العمومية من نحو خمسة عشر عاماً من أجل قصيدة رأت أنه مس فيها كرامة الخديوى السابق ثم دارت الايام فاظهر مولانا الكريم تعطفه بالرضى عنه عند ماتبين له حسن قصده وسلامة ضميره . وسخاء وجود بكل ماتملك يمينه . وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً فاذا غضب وقليلا مايفعل فهو الليث قوة وشجاعة . وصمت طويل يحسبه الناظر عياً [٤] فاذا تكلم بذ القائلين . وإيمان

(١) زهد فى الشىء ورهق عنه — تركه (٢ الدانق — سدس درهم
(٣) السحت — النزر القليل (٤) العى — العجز

قوى كالطود الراسخ [١] لا تذهب به العواصف ولا تلوى [٢] به حوادث الدهر وفواجعه . فما رئى فى يوم من أيامه ملماً [٣] بما يفسد عليه دينه أو مروءته . ولا ضعيف الثقة بالله فى حالة عسره ويسره . وشدته ورخائه . وصبر جميل على مايذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم من حوادث الأيام ورزاياها . فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث المر [٤] سكوناً لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة شغفه بهما . ثم ماتت زوجته بعد ذلك وكانت أحب الناس اليه فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء بذلك الحادث سواه . ولقد لقى فى حياته كثيراً من غدر أصدقائه وعشرائه الذين أوقعه فى ترك صداقتهم طهارة قلبه وبياض سريرته والذين طالما أحسن إليهم وكانت له اليد فى تعليمهم أو تقويم [٥] أود عيشهم فما حفل بذلك ولا بالى به بل كانت كلمته الوحيدة التى كان يقولها حينما تدب إليه تلك العقارب « ان الله وحده هو الذى يستطيع أن يغير طبيعة الانسان » وأجمل مايعرف له أخصاؤه من الأخلاق

---

(١) الثابت (٢) لوى به — أماله (٣) ألم بالذنب — فعله (٤) البازل
(٥) الأود — الثقل

النادرة أنه يحيا حياة ذاتية غير حافل بتلك الحياة الاضافية التي يحياها كثير من الناس الذين لا يعرفون لهم حياة إلا فى أفواه الناطقين . وآذان السامعين . فليس أحقر فى نظره من مدح المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه . فلو أن الناس جميعاً أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته . وكثيراً ما كان يقول له العالم الفاضل سعد زغلول باشا « إنى لأرى لك فى كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيراً فى أقلام الكاتبين » وكثيراً ما كنت أسمعه يقول « لا طلعت علىّ شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أو يعجب برأيى فيه البليد » وليس أبغض إليه من الكذب ولا أحب إليه من الصدق فيبغض حتى المبالغة فى البشاشة والاغراق فى الحفاوة . ويحب حتى العتاب المر والتقريع [1] المؤلم مادام المتكلم صادقاً فى قوله مخلصاً فى مذهبه . ولقد كان هذا سبباً في حبه للعزلة وميله إلى اجتناب المعاشرة والمخالطة كأنه يطلب من الناس غير ما يطلب

الناس بعضهم من بعض . وبالجملة فان كان فى أخلاق المترجم مأخذ ففى هـذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم على علاوتهم . ولبسهم [١] على سوآتهم

سياسته

سياسته سياسة كل وطنى يتهالك وجداً على حب وطنه ويذرى [٢] الدمع حزناً عليـه وعلى ماحل به من ضعة الحال. وفقد ان الاستقلال . ومن كلماته المأثورة [٣] عنه فى هذا الموضوع قوله « لو علمت أن حياة مصر لاتتم لها إلا بفقدان حياتى لكان سبيل الموت أشهى إلى من سبيل الحياة » وليس له حزب خاص ينتمى [٤] إليـه ولا جريدة خاصـة يتعصب لها . أما الأحزاب فرأيه فيها أن تعـددها مضر بمصلحة الوطن وأنه يجب أن تكون الأمة كلها حزبا واحداً لأن أقل ضغينة سياسية تقع بين أفراد الأمة تنتقص من استقلالها بمقدارها . وأما الجرائد فرأيه فيها أنها بين جريدتين احداهما تبالغ فى أرضاء الأمة وممالاتها [٥] على كل نافع وضار من شؤونها وهـذه تشبه أن تكون متاجرة بالعقول .

---

(١) السوأة — العورة (٢) درته الريح — نسفته وفرقته (٣) المنقولة (٤) ينتسب (٥) معاونتها

والاخرى تقسو فى إرشادها وهـذه لاتستفيد منها الامة كما يجب أن يكون. فهو يرى أن الأمة لاتزال حتى اليوم فى أشد الحاجة الى قائد شديد الاخلاص فى عمله. جم الحكمة فى قوله. وليس بينه وبين جريدة من الجرائد علاقة خاصة حتى الجرائد التى كان يكتب فيها رسائله. فلم يكن بينـه وبينها أكثر مما يكون بين أى كاتب يكتب رسائله مطلق الحرية فى أية صحيفة يتوسل بانتشارها إلى نشر آرائه وأفكاره. فان لاقاها فى شىء من مبادئها ومذاهبها لاقاها مصادفة واتفاقاً. وإن فارقها فى ذلك فارقها طوعاً واختياراً

أدبه

قل أن يوجد بين الكتاب الذين يذهبون مذهب كتاب العربية الأولى فى علو تراكيبهم وبلاغة أساليبهم من يستطيع أن يخوض بقلمه [1] غمار هـذه المدينة الحديثة وأن يتناول به هذه المعانى العصرية والآراء الجديدة التى حدثت بعـد وقوف اللغة العربية عند الموقف الذى وقفت عنده محتفظاً بخطته فى الكتابة ودرجته فى الاسلوب. وقل أن تجد بينهم

(١) دخلت فى غمار الناس — زحمتهم

من يستطيع أن يرضى الخاصة بقلمه ويحسن إلى العامة ببيانه وإفصاحه . فهو أن علا غم على العامة أمره . وأن نزل أغضب الخاصة قلمه . أما المترجم فهو على ما أرى الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشؤونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى أو التى لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها أسلوباً . مما يدل على أن السليقة العربيــة ملكة من ملكاته . لا عارية من عواريه . كما أنه الكاتب الوحيد الذى يستوى فى فهم معانيه وأغراضه وفى الاعجاب بفصاحته وبيانه فطاحل الادباء . وأصاغر البسطاء . مما يدل على أنه يكتب بقلبه لا بقلمه . وأنه يحادث الأفئدة والصدور . لا الصحائف والسطور

فان كان صحيحاً مايقولون من أن الكتاب المجيدين فى هذا العصر انما يستمدون روح كتاباتهم من اللغات الاجنبية . ويستنزلون من سماء قرائح شعراء الافرنج وحى خيالاتهم الشعرية . فالسيد المنفلوطى الذى لا يعرف لغة غير اللغة العربية . ولا يلجأ إلى وحى غير وحى الخواطر النفسية . نادرة كتاب العربية فى هذا العصر رحمه الله رحمة واسعة

المختار من نثره

روح الاجتماع

إن لكتاب روح الاجتماع عندى يداً لا أنساها لمؤلفه الدكتور جوستاف لوبون ومترجمه العالم الفاضل سعادة « أحمد فتحى زغلول باشا » فقد وجدنى ضالا فهدانى . وحائراً فرفع لى مناراً أحمر حتى عرفت السبيل

كنت أنقم من هذا المجتمع المصرى شؤوناً ما كنت أنقم مثلها من غيره من المجتمعات البشرية . وكنت أكاد أعتقد أنه مجتمع شاذ غريب فى أطواره وصفاته . حتى قرأت ذلك الكتاب الذى شرح طبيعة المجتمعات عامة شرقيها وغربيها وقرر لها حكماً واحداً لا يختلف ولا يتخلف . فعرفت أن لا فرق بين الشعب المصرى وغيره من الشعوب الاخرى إلا كما يكون بين الشىء والشبيه به من الاتفاق فى الجوهر والكيفية . والاختلاف فى العرض والكمية

كنت أعجب للجماعة المؤلفة من أتباع الحزب الوطنى

أن أراها مائلة إلى تصـديق زعماء ذلك الحزب فى دعواهم
القدرة على إزعاج الاحتلال الانـكليزى من مكانه ومقاومة
قوته القاهرة بمقالات يسطرونها . أو خطب ينمقونها .
وعلى انتزاع الدستور من يد صاحب الأمر فيـه بصراخ
الشوارع . وهتاف المجامع . بل إلى تصـديق كل قائم بينها
سواء أكان هنديا أوجركسيا أو بربريا أونوريا أو فرنسيا
أوانكليزيا زاعما أنه يخدم الوطنية المصرية بصدق وإخلاص
كما صدقت بالأمس المستربلانت الانكليزى فى دعواه أنه
قد نزل من حب الوطن المصرى منزلة من يهدى النصائح
والعظات إلى الخديوى السابق أكبر أصحاب الشأن
فى القضية المصرية ويعلمه كيف يكون وطنيا . وكما صدقت
اليوم المسيو ديروجا الفرنسى والمسيو دراجيلا الاسبانى فى
دعواهما الغيرة عليها . والاهتمام بشأنها فالاتهما على أميرها
أبى الوطنية . ومطلع كوكبها السارى . وظهرت فى توديعهما
إلى منفاهما بمظهر تتصبب له الجباه عرقا . وتندي له الوجوه
الكريمة حياء وخجلا . فلما قرأت فى روح الاجتماع وله « ولما
كانت الجماعة على الدوام محافة فى حدود اللاشعور تتأثر

بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد » عرفت أن تلك طبيعة الجماعات وأن ليس الذنب فيها على المجتمع المصرى خاصة بل على المجتمعات لانسانية عامة

وكنت أعجب للرجل الذى لا بأس بلبه . ولا ظنة في فهمه وادراكه . من محام بارع . أو طبيب حاذق . أو عالم محقق . أوباحث مدقق . أن أراه على جلاله وعظمه منتصباً وسط أتباع الحزب الوطنى يضج ضجيجهم . ويصرخ صراخهم . ويقول بما يقولون . ويفهم كما يفهمون . ويتقلب فى أكفهم تقلب الكرة فى أكف اللاعبين . ويشاركهم فى تصور مالا يتصور . وتصديق مالا يكون . حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة « ولا ينبغى فى رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة فى موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى

عدم القدرة على التمييز ماداموا فى الجماعة » وقوله فى موضع اخر « وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون فى الوجدانات والشهوات والمشاعر . وأعظم الرجال لايتفاوتون عن العامة فى الأمور التى مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً . فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد مابين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء . ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية » وقوله فى موضع آخر « يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية . ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل . مهذب الأخلاق . ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة . ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته . وفيه عنفه وفيه حماسته وشجاعته . وفيه من سهولة التأثر بالألفاظ والصور مما لا يكون يتأثر به وهو خارج الجماعة . ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل مايخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه . وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الرياح ماهبت » هنالك هدأ

خاطرى . وثلج صدرى . وأمكننى أن أقول إن أذكياءنا ليسوا بأغبياء . وعلماءنا ليسوا بجهلاء . ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها فى كل زمان ومكان

وكنت أعجب لخضوع أتباع الحزب الوطنى لرؤسائهم الذين يؤذونهم ويمثلون بهم ويستلبون أموالهم إن كانوا أغنياء . وقواهم ان كانوا أقوياء . ومستقبلهم إن كانوا متعلمين . وحاضرهم إن كانوا موظفين . وعقولهم إن لم يكونوا شيئاً من هذا ولا ذاك . كما كنت أعجب لانصرافهم عمن يأخذهم باللين . ويرفق بهم . ويحنو عليهم . ويضع يده فى أيديهم فى مزالق الحوادث مخافة أن تزل بهم أقدامهم . فما زال عجبى حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله فى حديثه عن الجماعة « وهى تحترم القوة وتخنع لها . ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا . لأنها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا . لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا باللين والرفق بل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها »

وكنت أعجب لاهتمامهم بمطالعة المقالات السياسية التى تنشرها جرائد حزبهم وتأثرهم بها على ماتشتمل عليه

من الأدلة الفاسدة . والمعانى السقيمة . والأساليب الباردة. والبراهين الملفقة . التى يأنف عقل العاقل أن يمنحها حتى النظرة الأولى . وكنت أظن أن ذلك راجع إلى فساد ذاتى فى أذواقهم . أو ضعف غريزى فى مداركهم . حتى وقفت على الحقيقة عند الاطلاع على قول صاحب روح الاجتماع «أن رابطة الأفكار التى تقارنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية . فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم . فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب فى الفم . وكالمتوحش الذى يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل . والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزائى إلى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا ترو : والأدلة التى يقدمها إليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطرز .

لأنها هى الأدلة التى تؤثر فيها . بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فانها لاتدركها بحال . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها . فاذا نجح فذلك ماأراد. ولو ألقيت خطب فى عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكليمات التى دخلت فى الرؤس المراد اقناعها »

وكنت أعجب لأغراض المتعلمين منهم عن الحقائق التاريخية والسياسية والاجتماعية المتعلقة فالمسألة المصرية وعلاقة الدول الأجنبية بها عامة والدولة المحتلة خاصة . وتقدير الفرق بين قوة الدولة الغاصبة وقوة الأمة المغصوبة. وتنظيم حلقات الوسائل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها . وطيرانهم وراء الذين يقولون لهم « الجلاء على الأبواب » و «الدستور قاب قوسين أو أدنى» و «قطعنا شوطاً بعيداً» و « لم يبق إلا القيل »و «الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا » و«الحكومه الألمانية تساعدنا» و « الحكومة الانكليزية ترتعد فرائصها منا » و « أوروبا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب » وأمثال ذلك مما هو أشبه بخيالات الأطباء الذين

يحاولون تعزية المرضى المشرفين . وخرافات المنجمين الذين يعبثون بعقول عجزة الشيوخ وجهلة النساء . حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله « سارت الفلسفة إلى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذها . والجماعات لا غنى لهـا عن الأوهام . لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة التى تدب حين يكون الضياء . . . . . فما كانت الجماعات فى ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها . واذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التى ترضى الامرة[1] عليها لمن أضلها . والويل منها لمن هداها » فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة ولكنها جماعة . ومن الضرورى أن تكون كذلك

وكنت أعجب لتشيعهم للدستور واحتفالهم به . وإلحاحهم فى طلبه . إلحاح الفاهم المدرك . وأنا أعلم أن أكثرهم لا يفهمون منه إلا أنه القوة التى يقتدر بها الشعب على أن يأكل بعضه بعضاً بلا رقبة[2] ولا حذر . فلو عرفوه

(١) الامارة والولاية (٢) الانتظار

حق معرفته لوجدوا فى أنفسهم أن عدمه خير لهم من وجوده . لأنه عدل ورحمة . ولأنه يمنع ظلمة الآكلين أن يجدوا ما يأكلون . فلم أقف على سر تشيعهم له وهو فى الحقيقة أبغض الأشياء إليهم . حتى قرأت فى ذلك الكتاب قوله « وكم من جماعة تقدمت إلى الموت فى سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لاتفقه شيئاً من معانيها ... لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع »

وكنت أراهم غالين فى مشاعرهم . متطرفين فى ميولهم . وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا . وإما أن يبغضوا فيقتلوا . وأن الرجل عندهم إما أن يكون إلهاً أو شيطاناً ولا ثالث لهما . وان رضاهم عن رؤساء حزبهم لايقل عن رضاهم عن رسلهم وأنبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم . فأكاد أختصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف لى روح الاجتماع سر المسألة فى قوله « غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً إلى الحد الأقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهى لايقبل البحث . والرجل منفرداً قد لايقر على أمر أو ينفر

منه نفوراً لايتعدى مجرد الرغبة عنه . وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً » وقوله فى موضع آخر « كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائماً بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهمية . وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها . فللوهمى عليها من ذلك ما للحقيقى تقريباً . وهى ميالة ميلا ظاهراً إلى عدم التمييز

وكنت أعتقد أن لاشىء يؤثر فى نفوس الجماعات غير إخلاص الدعاة . ثم استحال علىّ التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطنى ودخائل نفوسهم من أنهم لايطلبون مما يعملون فى هذه الحياة غير مايطلب كل عامل فيها من لقمة سائغة . وجرعة صافية . ومركب فاره [1] . ومتكأ وثير [2] . حتى اهتديت إلى حل هذه

(١) خفيف نشط حاذق (٢) لين ثخين

المقدة فى قول صاحب روح الاجتماع « وجد القواد فى الأمم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب سوفسطائيون لا يسمون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم . وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً إلا أنه سريع الزوال»

وكنت أعتقد أن أقدر الناس على قيادة الجماعات أذكاهم قلباً . وأوسعهم عقلا . وأفصحهم لساناً . وأجرأهم قلماً . فلما رأيت أن قواد الحزب الوطنى ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التى نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان . أو بلاغة قلم أو علم واسع . أو خلق مؤثر . وقفت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب حتى قرأت فى روح الاجتماع قوله « ليس القواد غالباً من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام . وهم قليلو التبصر . على أنه ليس فى استطاعتهم أن يكونوا بصراء . لأن التأمل يؤدى غالباً الى الشك ثم السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الأعصاب المريضة المتهوسين الذين

اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون. لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا. ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغا منها الخطل[١] ما بلغ. ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد. بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً » وقوله فى موضع آخر «وكان أكبر القواد من الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً. وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل. فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط[٢] عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو روسبيير. ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار... صيغ كلية جارية على كل لسان. وشقشقة فى الفصاحة محفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا فى نفس خلوها أكثر من انحطاطها. نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع الا ما تعوده للتلاميذ من قول الواحد منهم لزميله: هل من مبار: وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة. عنف ممل وشدة

(١) خطل فى منطقه ورأيه — أخطأ (٢) تخبط الشيطان — أفسده

وشدة مسئمة . فاذا فرغ القاريء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الوجل الظريف

كاميل ديمولان

وكنت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطنى وبعض كتاب جرائده كيف استحالوا الى جناة مجرمين بعد أن كانوا أشرفاء أتقياء. وكيف هان عليهم أن يجاملوا نفوسهم بالاغضاء عما تقترفه من سب الأبرياء وهتك أعراض الأشراف والعب[1] فى الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لمم[2] الذنوب وصغائر الدنايا. كما كنت أعجب لهذا البائس المسكين الذى كان أندى الناس وجهاً. وأكثرهم حياء وأدبا. كيف حسن فى نظره منظر جريمة القتل التى ارتكبها ثم هلك فى سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذى يحسب أنه يخدمه ضربة هيهات أن يثل من بعدها[3]. ثم عرفت أن ذلك لازم من لوازم الجماعات عند ما قرأت قول صاحب روح الاجتماع « أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى أمياله مما

(١) عب الماء شربه من غير تنفس (٢) صغائر (٣) المراد بهذه الجريمة جريمة الوردانى قاتل بطرس باشا

كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة . ثم هو لايكبح جماح نفسه لأن الجماعة لاتسأل عن أفعالهـا لشيوعها بين جميع الأفراد . فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة . وهـذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لاينبغي » وقوله فى موضع آخر « تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى . ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم . وهـذا ليس شأن الجناة فى الأحوال الاعتيادية

وهنا يمكننى أن أستخلص مما تقدم الحقائق الآتية

(١) ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأى من الآراء دليلا على صحة ذلك الرأى لأنه رأى فرد واحد تأثر به الباقى تقليـد أو عدوى . ورأى الواحـد مترجح بين الخطأ والصواب

(٢) ليس انضمام جماعة من أذكياء الناس وعقلائهم فى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلا على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحـة مبادئه لأنهم

لا يجتازون عتبته الا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أرديتهم وعصيهم خارج بابه

(٣) لا يشترط فى قيادة الجمهرة أن يكون القائد ذكيا أو عاقلا أو داهية أو مفكراً أو فصيحاً بل يكفيه من ذلك كله شىء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم

(٤) ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلا على رفعة من يحبون. وضعة من يبغضون. وليست جرائمهم التى يقترفونها باسم الشعور الذى يشتركون فيه دليلا على أن من يقتلون يستحق القتل. أو يشتمون يستحق الشتم أو يحتقرون يستحق الاحتقار. بل كثيراً ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عند ما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم

(٥) لا يكون مقتدراً تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستهوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب فى كتاباته أو خطاباته مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلى. ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة

والتضليل آو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم

(٦) لاسبيل للانسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو مفكراً إلا إذاحبس نفسه عن الانضمام اليها . أو كان له من عزيمة الرأى وصلابة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له . فيحضرها شاهداً كغائب ومجتمعاً كمنفرد

(٧) لايجوز للتلميذ فى أثناء الدراسة أن ينضم إلى حزب من الأحزاب أو جمية من الجميات بالفعل أو بالقوة إلا بعد أن يستمد من العلم قوة تساعده على اكتساب ملكة التجرد التى لا بدله من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوسها ان اضطر فى مستقبل أمره إلى الانضمام

(٨) جميع القوى التى يتوسل بها قائد الحزب أو الجماعة إلى التأثير على أتباعه أو تكثير عددهم ضعيفة بجانب القوة التى يستمدها من مقاومة الحكومة التى يعيش فيها له بالتهديد أوالسجن أوالتعذيب . فانه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه . وتشبثهم به . ويؤنس باحاديث نكبته ونوادر

رزيئته قلوبهم كلما ألم بها الملل منه ومن وعوده الكاذبة وأقواله المرددة . فان كان لتلك الحكومة أرب فى القضاء عليه وعلى أتباعه وكانت قادرة على قطع الصلة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافياً أو قطع خطابته إن كان خطيباً فلتفعل . وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعيى بأمرهم . وتنفذ بقية القوى التى يتوسل بها اليهم

(٩) ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البساطة والبله وسرعة التصديق والاندفاع والغلو شراً دائماً بل قد تكون خيراً مخلصاً إذا رزق الله تلك الجماعات قواداً دهاة مقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها إلى سعادة أممهم وهنائها . وحريتها واستقلالها

(١٠) ليس وجود التهرس والتحمس والغضب والتهور فى حزب من الأحزاب المصرية دليلا على تأخر الأمة وانحطاطها انحطاطاً كثيراً لأنها صفات عامة فى كل الجموع الشرقية الغربية وان كان خطرها علينا أكثر من خطرها على غيرنا

أين الفضيلة

قرأت فى بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة فى حياته وانما تخيل فى ذهنه صورة ألّفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها فى صور البشر . فلما استقرت فى مخيلته تجسمت فى عينيه فرآها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب . فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواما طوالا حتى وجدها

لاأستطيع أن أكذب هذه القصة لانى أنا ذلك الفتى لافرق بينى وبينه إلا أنه يسمى ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة وأنه فتش عنها فوجدها وفتشتُ عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا

فتشت عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً فى أثواب بائع . وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق الدينار الثانى . ولو وُكل إلىّ أمر القضاء ما هان علىّ أن أعاقب لصوص الدراهم وأغفل

لصوص الدنانير ما دام كل منهما يسلبنى مالى ويتغفلنى عنه

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه فوق جزائه على جهد نفسه فى جلب السلعة وبذل راحته فى صونها وإحرازها . وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الأول بدل الجد والعمل . والثانى بدل الغش والكذب

فتشت عن الفضيله فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه : أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنده ذيول وأذناب لا يأبه[1] لها ولا يحتفل بشأنها الا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقاً . فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم وأدان البرىء وبرأ الجانى . فاذا

(١) أبه للشىء تفطن له واحتفل به

عتب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكم القانون عليه كأنما يريد أن يحمل العقل أسير القانون وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه :

هذا شأن أعدل القضاة وأهداهم إلى الحق وأقومهم سبيلا . أما الآخرون فيطبقون أحكامهم على قانون الربح وينزلون من الدينار منزلة اللازم من الملزوم فيدورون معه وجوداً وعدماً

فتشت عن الفضيلة فى قصور الأغنياء فرأيت الغنى اما شحيحاً أو متلافاً [1] . أما الأول فلو كان جار البيت فاطمة رضى الله عنها وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه نسمات الرحمة ولا تمر بين أثنائه نسمات الاحسان . وأما الثانى فماله بين ثغر الحسناء . وثغر الصهباء . فعلى يد أى رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء

فتشت عنها فى مجامع السياسة فرأيت أن المعاهدة

---

(١) متلف ماله مبالغة

والاتفاق والقاعدةوالشرط ألفاظ مترادفة معناهاالكذب . ورأيت أن الملك فى كرسى مملكتـه . كالحوذىّ فى كرسىّ عربته . لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » . وذاك ينقض معاهدته . ورأيت أن أعدى عدو للانسان الانسان . وأن كل أمة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها وفى بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها ما شاء الله أن تعده لاختها من عدد الموت وأفانين العذاب . حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحـدود أو لقب من الالقاب لبس الانسان فروة السبع واتخذ من تلك العدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنيابه فشحذ الأولى وكشر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وابن أمه هجمة لا يعود منها إلا به أو بنفسه التى بين جنبيه . وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجدة التى تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما إلا فى الساعة التى اقتتلتما فيها لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا درّة فى تاج الملك أو « نيشانا » فى صدر القائد

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول فى أسواق الجهل ورأيت كلا منهما قد ثغر[1] له فى رأس من رؤوس البشر ثغرة يتحدر منها إلى العقول فيفسدها وإلى القلوب فيقتلها ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها . هذا باسم الوطنية وذاك باسم الدين

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها فليت شعرى هل أجدها فى الحانات والمواخير أو فى مغارات اللصوص أو بين جدران السجون

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب فى كلمه وجاوز الحد فى تقديره فالفضيلة لا تزال تجد فى صدور الناس صدراً رحباً . ومورداً عذباً . وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم إنى لا أنكر وجود الفضيلة ولكننى أجهل مكانها فقد عقد رياء الناس أمام عينى سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً . ولا كوكباً ساطعاً

كل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباسها

---

(١) كسر

ويرتدى رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوى الأذكياء والأغبياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً . ومن لى بالوصول إليها فى هذا الظلام الحالك والليل والأليل

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها فسعادتى فيها أن أعثر فى طريقى فى يوم من أيام حياتي بصديق يصدقنى الود وأصدقه فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه وأن يكون شريف النفس فلا يطمع فى غير مطمع شريف القلب فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير ما يحادث به خلطاءه فى محضره شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر [1] شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة

هذه هى السعادة التى أتمناها ولا أراها

إنى لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها . وترن أطيارها وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعى الرقطاء . فى الرمال البيضاء . وأرى أنامل النسائم

---

(١) الهجر الفحش

تعبث بمنثورات الأوراق . عبث الهوى بألباب العشاق .
وأسمع ما بين صفير البلابل . وخرير الجداول . نغمات شجية
تبلغ من نفس الانسان ما لا تبلغ أوتار العيدان . فلا يسرني
منظر ولا يطربني مسمع لأني لا أرى بين هذه المشاهد
التي أراه ضالتي التي أنشدها

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني وثقل حديثها في
مسمعي حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر
بخيرها وشرها وسرورها وحزنها

ولو لا بنيات صغار يفقدن بفقدي طيب العيش
ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت
فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهى فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب. أو تعذر عليك مطلب وإن كنت تعلم أخلاق الأيام لى أخذها وردها . وعطائها ومنعها ، وأنها لا تنام على منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فتستردها وأن هذه سنتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم سواء فى ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنعاله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفض من حزنك ، وكفكف من دمعك ، فما أنت بأول عرض أصابه سهم الزمان ، وما مصابك بدعة خارقة فى جريدة المصائب والأحزان

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً ، وقلبك سروراً ، وما هى إلا كرة الطرف أن افتقدته ، فما وجدته ، ولو أنك أجملت

فى آملك ، لما غلوت فى حزنك ، ولو أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ، ما تظنه نجماً زاهراً ، وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله

أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر إليها نظر المستريب بها وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت فى يده فذاك وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء ساعة الموت ولو لا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولو لا فرحة التلاق ، ما كانت ترحة الفراق

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذى رأيته أمس فى إحدى زوايا الأندية العامة وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما شعر بأن قلبه يتمشى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضى فى سبيله حيث شاء ،

فبعداً لقلب لا تسكن عن الخفقان ، ولا يفيق من الهموم والأحزان

سألته ما بالك أيها الصديق ، قال لا شيء ، قلت أنت تكتمني ما فى نفسك ولو عرفتني ما كتمتني ،قال ما جهلتك مذ عرفتك ولكنني أعطيت الله عهداً ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برأ من دائى ، قلت هبني طبيباً والطبيب كما تعلم وإن كان يشفى نادراً فانه يسكن غالباً ويعزى دائماً ، فانا إن عجزت عن معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك ، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس وإلا طار بالقدر طيران الهم بالصدر

فأنشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول : زوجني أبى منذ سنين زوجة جاهلة غبية لا تفهم معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لبانتها[1] ، وترفيه عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إلى بسليلة[2] المجد وربيبة النعمة ومالكة الدور ، وساكنة القصور ، أجل

(١) اللبانة — الحاجة (٢) ابنة

إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب غفر الله له أني ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالاً بل زوجاً أجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي لا تكذبني في خير ولا شر ، إني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ولبس ثوبها . على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها فقد كانت لها خادم لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لا يغب[1] زيارتها ومؤنسات لا يفارقن مجلسها ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب ، والجمال المكذوب وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العزاب تخيلاً وتقديراً بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[2] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الاستانة

(١) غب فلان القوم اذا جاءهم حينا بعد حين ؛ (٢) الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح

يراقبن مواقع نظرى ومواطىء قدمى لتعلم أين مذهب قلبى ووجهة نفسى فتغار من الكوكب إذا رأتنى أنظر إليه وتكاد تمزق الثوب الذى أتمشق لبسه وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحب إذا رأتنى أتأوه من الآلام عشرتها أو أبكى لعظم مصيبتى فيها ، وما هى بغيرة الحب ولكنها الأثرة[1] قبحها الله وقبح كل ما تأتى به ، وأكثر ما كان يغيظنى منها أنها ما كانت تفتتح على باب الحساب على اللفتات والخطوات إلا فى الساعة التى أخلو فيها بنفسى أو بكتابى فما أكاد أنتفع بواحد منهما ، فان سكت أغضبها سكوتى وإن نطقت أغضبها حديثى ، وإن قرأت فى كتابى ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بالنساء لكى يتخذها الرجال ملجأ يعتصمون به من محادثتهن ومسامرتهن ، فكان الكتاب أعدى أعدائها عندها وأبغض خصومها إليها ، وجملة القول أنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها وأنه ما خلقنى إلا لأكون زينة مجالسها ، ودمية[2] قصرها ، وأداة لهوها ولعبها

---

(١) الأثرة اختيار الشىء والاستئثار به (٢) الدمية الصورة المصورة

فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطى نفسى حقاً من حقوقها ولا أبكر لمزاولة أعمالى ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التى لا تشتمل إلا على نقد الأزياء، واغتياب النساء، فان وافيت رغبتها فذاك وإلا استحالت فى لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها على فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها فى شقاء حبب إلىّ الموت وبغض إلىّ وجه الحياة، وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بداً من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض أبغض إلى من المجد ولا أسمج فى نظرى من المال

نفضت يدى من الزوجة الجاهلة ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكونن لى من الشأن فى الزواج الثانى مالم يكن لى فى الزواج الأول بعد ماصار إلى الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار. فهيأ لى الحظ جاراً ملاصقاً مازلت أسمع مذحل فى جواري أن فى بيته فتاة مازال معنياً بأمرها حتى خرجها [1] وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها وسيدة

(١) خرج الاستاذ تلميذه هذبه وعلمه

أترابها علماً وفضلا وتهذيباً وأبا فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها فاذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني[1] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً وخيل إلى أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو قليلاً قليلاً وسجلت[2] أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته، ما أسلف من سيئاته، فاني لكذلك وقد أعددت للبناء بها عدته ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد وإذا بحامل البريد قد جاءني بهذا الكتاب فما كدت أقرأه بأن فيه بقية قصتي وشر نكبتي. ثم ألقى إلى بغلاف معنون باسمه يشتمل الكتاب على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه فقرأت في الكتاب ما يأتي :

« علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنك عما قليل ستكون زوجها ولعمري لقد كذبك نظرك وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها فانها لن تكون لك بعد أن

(١) يقال خطب فلان الي فلان فأخطبه أي أجابه
(٢) سجل القاضي قضى وحكم واثبت حكمه المسجل

صارت لغيرك ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها ، فأعدل عن رأيك فيها وانفض يدك منها ، وإن تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صدق خبرى واخلاصى إليك فى نصيحتى فانظر إلى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » : التوقيع :

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شىء فأحسست برعدة تتمشى فى أعضائى وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظرى لهول ما سمعت . وسوء ما رأيت . إلا أننى تماسكت قليلاً فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول . ماذا يعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف لك سرها . وظهرت لك حقيقتها . ولو كنت فى مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها إلى الاستغفار من حبها وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأى فيها . أما إن سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد ذلك فانى لا أرى لك بعد اليوم إلا أن تترهب وتتعزب [1] وأن تقول ما قاله «حملت» وقد زهد فى الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها « إلى الدير »

---

(١) تعزب أي عاش عزبا لا يتزوج

الحرية

استيقظت فى فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء[1] بجانب الفراش وتتمسح بى وتلح فى ذلك إلحاحاً غريباً فرابنى أمرها وأهمنى همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاماً فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها عطشة فأرشدتها إلى الماء فلم تحتفل به وأنشأت تنظر إلى نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والاحزان فأثر فى نفسى منظرها هذا تأثيراً شديداً حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلا فرأيت أنها تطيل النظر اليه وتلصق بي إذا رأتنى أتجه اليه فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب . فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو فى سبيلها . فعدت إلى فراشى وأسندت رأسى إلى يدى وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول : ليت شعرى هل تفهم

---

(١) المواء صوت الهر

الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها . أجل إنها تفهم معنى الحرية وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعياً وراء بلوغها

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الانسان لايشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة والوحش المعتقل فى القفص والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه . بل ربما كان بينهم من لايفكر فى وجه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه . بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه واسقامه

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع فى الحرية ميداناً من الحيوان الناطق . فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته . وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان قبل أن يصبح زكياً ناطقاً

يحلق الطير فى الجو ويسبح السمك فى البحر ويهيم

الوحش ماشاء فى الأودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبسين محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالا وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقاً حذراً مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه فويل له ما أكثر جهله وويح له ما أشد حمقه، وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر

كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد فى القفص وكان ذلك
خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ولا
تخلص إليه نسمة من نسماتها

كان فى مبدأ خلقه يمشى عرياناً أو يلبس لباساً واسعاً
يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، أو هبة النكباء
فوضعوه فى القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون
الموتى وقالوا له هكذا نظام الأزياء

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع
طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفاً من المرض
أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب
وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الدينى أو الحاكم
السياسى وأن يقوم أو يقعد أو يمشى أو يقف أو يتحرك
أو يسكن إلا كما تقضى به قوانين العادات

لا سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش
الانسان فيها حراً لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه
وفكره إلا أدب النفس

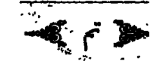
الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس ، فمن عاش

محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر

الحرية هى الحياة ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه شىء بحياة التماثيل المتحركة فى أيدى الاطفال بحركة صناعية

ليست الحرية فى تاريخ الانسان حادثا جديداً ، أو طارئا غريباً وإنما هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

إن الانسان الذى يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بهـا فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لأحد عنده



تم